مترجمات

WILLIAM BECKFORD

وليام بيكفورد

رواية

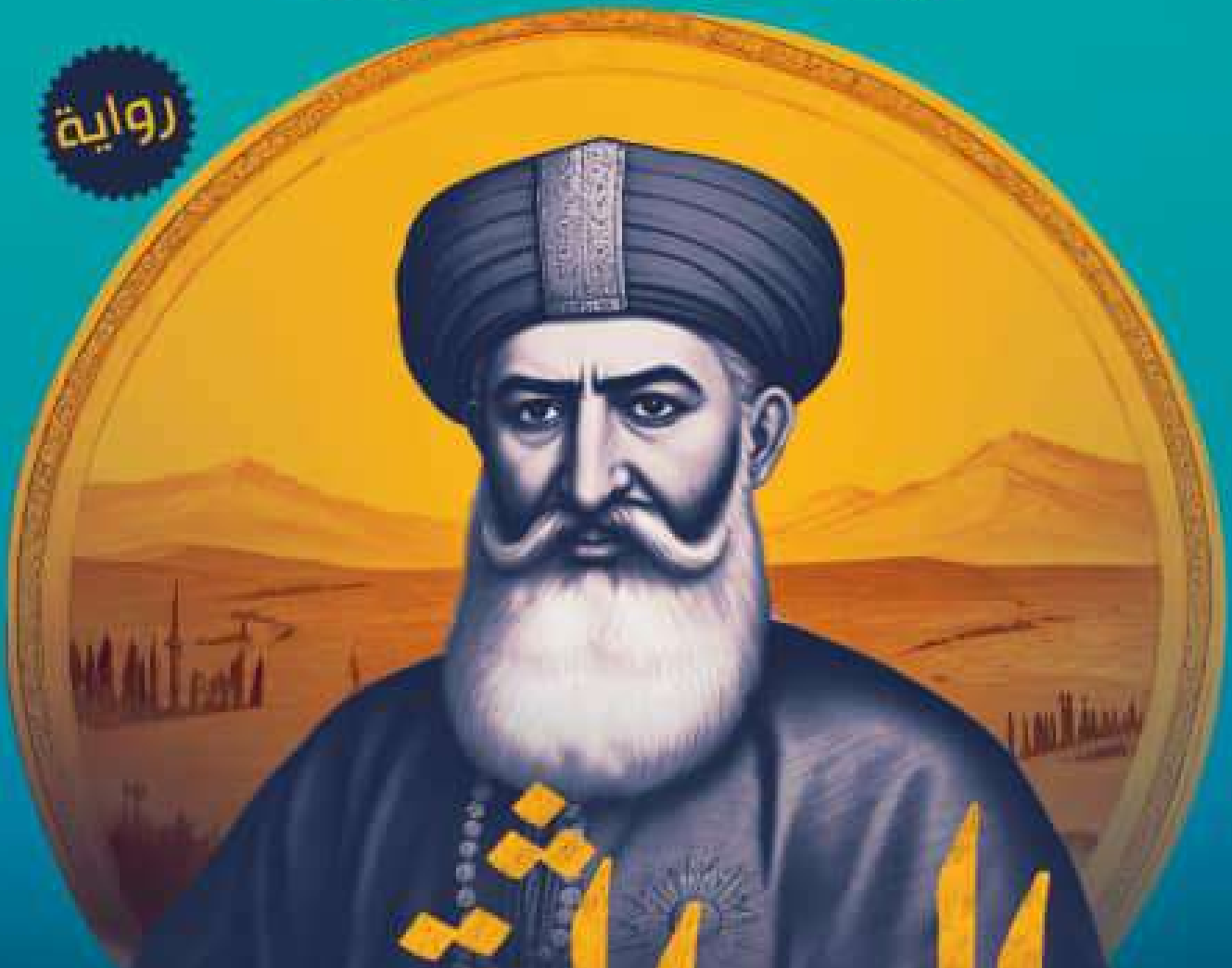

الواثق

VATHEK

Telegram:@mbooks90

ترجمة: محمد زكريا

دار الشراقة

عنوان الكتـــاب: الـــواثـــق

تـــألـيـــف: وليام بيكفورد

تـــرجـــمـــة: محمد زكريا

مـراجعة لغـويـة: عبدالقادر أمين

عـــدد المـــلازم: 10 ملازم

عـــدد الصفحات: 152 صفحة

الـــمـــقـــاس: 14 × 20

رقـــم الإيـــداع: 2023 / 27788

ISBN: 978 - 977 - 8989 - 19 - 9

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٤ م

دار إشراقة

دريم بن

eshraqapublish@gmail.com

0233358052

Eshraqabook

Eshraqabook

Eshraqabook

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه،و نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

All rights reserved, is not entitled to any person or instiution or entity rcissus of this book, or part thcrcof, or transmitted in any from or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders

نبذة عن الكاتب

وليم بيكفورد، هو مؤلفٌ إنجليزي اشتهر بروايته القوطية «الواثق» (1786). كان بيكفورد شخصيةً بارزة في القرن الثامن عشر، وكان يُعرف بأسلوبه الغريب والسريالي. ولد بيكفورد في لندن في عام 1760. كان والده رجلَ أعمال ناجحًا، وتلقّى بيكفورد تعليمًا جيدًا. في عام 1783، تزوّج من مارغريت غوردون، التي كانت من عائلةٍ نبيلة. في عام 1786، نشرَ بيكفورد روايتَه الأولى «الواثق».

كان لبيكفورد دورٌ كبير ومهمٌ في تطور الأدب القوطي. أسلوبُه الغريب والسريالي كان مصدرَ إلهام للعديد من الكتّاب الآخرين، مثل: «إدغار آلان بو» و«ماري شيلي». نشرَ بيكفورد العديدَ من الأعمال الأخرى، مثل: «حكايات الجنيات» (1786)، و«رحلة إلى الجبال البركانية في جزيرة ماديرا» (1790)، و«الذكريات والأفكار والأحداث» (1834). كان بيكفورد - أيضًا - مهتمًا بالعمارة، وقامَ ببناء العديد من المباني، بما في ذلك دير فونثيل في إنجلترا. توفيَ بيكفورد في عام 1844 في باث، إنجلترا.

الروايةُ القوطية

نوعٌ أدبي يجمع بين الخيال والرُّعب والرومانسية في بعض الأحيان. يُنسَب أصلُها إلى المؤلف الإنجليزي «هوراس والبول» بروايته «قلعة أوترانتو»، والتي صدرت عامَ 1764، وفي الطبعات التالية صدرت بعنوان «قصة قوطية».

تتميّز الرواياتُ القوطية بالعديدِ من السمات المشتركة، بما في ذلك الإعدادات المرعبة، فغالبًا ما تقع أحداثُ الروايات القوطية في مواقع مُظلمة ونائية، مثل: القلاع المهجورة والمنازل القديمة والغابات الكثيفة. وتعتمدُ على ظهور الأشباح والجنّ والوحوش. وأيضًا الشخصياتُ المليئة بالعواطف، فغالبًا ما تتميزُ الشخصيات في الروايات القوطية بالعواطف الشديدة، مثل: الحب والخوف والفقدان.

نشأ هذا النوعُ الأدبي في إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إذ طوّر بعدَ والبول من قِبَل «كلارا ريف» «وآن رادكليف» «ووليام بيكفورد»، وقد حقّق هذا النوع نجاحًا كبيرًا في القرن التاسع عشر، وبشكلٍ خاص في رواية «فرانكنشتاين» لـ «ماري شيلي» وأعمال «إدغار آلان بو»، وكذلك الرواية القصيرة «ترنيمة عيد الميلاد» لـ «تشارلز ديكنز» والأعمال الشعرية لـ «صامويل تايلر». إحدى الروايات الأخرى المشهورة من هذا النَّمط، والتي تعودُ إلى أواخر العصر الفيكتوري هي رواية «دراكولا» لـ «برام ستوكر».

مقدمة المترجم

روايةُ «الواثق» هي روايةٌ قوطية كتبها ويليام بيكفورد باللغةِ الفرنسية عام 1782، ثمّ تُرجمت إلى الإنجليزية عن طريق القس «صامويل هينلي»، ونُشرت لأوّل مرةٍ في عام 1786 بدون ذكر اسمِ بيكفورد عليها تحتَ عنوان» الواثق، قصة عربية» وادعى القسُ أنها نُقلت مباشرةً من مَخطوط عربي غيرِ منشور لأسبابٍ غير معروفة. كتبَ ويليام بيكفورد «الواثق» باللغة الفرنسية في عام 1782، عندما كان في الحادية والعشرين من عُمره. وكثيرًا ما أكدَ بيكفورد أنّ رواية «الواثق» كتبها كاستجابةٍ عاطفية لأحداث وقعت في قرية ريفيّة إنجليزية تسمّى «فونتهيل» في عيد الميلاد لعام 1781؛ حيث قامَ بتجهيز عرض استعراضي مسرحي مستوحى من الشرق في قصره الريفي الفاخر بمساعدة الرسام ومصمّم المجموعات الشهير فيليب جيمس. وقال بيكفورد إنه استغرقَ في كتابة الرواية ثلاثةَ أيام فقط؛ نظرًا لاستجابة قلمِه المتلاحقة للأحداث التي يسردُها عقله. كُتبتِ الرواية خلالَ فترة تأثرت فيها الثقافة الأوروبية بالشرقية. إنها قصةٌ عربية خالصة بسبب الجوّ الشرقي والشخصيات وصورة الثقافات والمجتمعات والأساطير الشرقية، وهي - أيضًا - روايةٌ قوطية لأنها تركزُ على الخوارق والأشباح والأرواح.

الشخصيةُ الرئيسية في الرواية مُستوحاة من الواثق بالله هارون، أبو القاسم ابن المعتصم، الخليفة العباسي الذي حكم في الفترة من 842 إلى 847 ميلادية (227 - 232 هـ في التقويم الإسلامي)، والذي كان يمتلك عطشًا كبيرًا للمعرفة، وأصبح راعيًا كبيرًا للعلماء والفنّانين. خلالَ فترة حكمه اندلعتِ العديدُ من الثورات، وشارك بقوةٍ في قمعها. وتوفيَ بسبب الحمى في 10 أغسطس سنة 847 ميلادية.

اختارَ وليم بيكفورد سردَ الرواية كمخطوطةٍ واحدة دونَ تقسيمها إلى فصول، على الرغم من أنها قد تنقسم إلى فصول بسهولة. يبدو أنّ هذا الأمر عائدٌ لما ادّعاه بيكفورد من قبل حولَ كتابته الرواية بسبب تداعي الأفكار إلى عقلِه في ثلاثة أيام فقط. اعتمد بيكفورد في سردِه على شخصياتٍ حقيقية مُقتبسة من تاريخ الخلافة العباسية كالخليفة الواثق نفسه بطلِ الرواية وأمّه قراطيس اليونانية، وأيضًا بعض

رجال الدين كالإمام الشافعي صاحب المذهب، وأيضًا الأماكن التي حدثت فيها أحداث الرواية في مدن لها وجود واقعي كسامراء المدينة العراقية، وبعض مدن الهند القديمة وبلاد فارس.

الرواية

كان الواثق(1) الخليفةَ التاسع من سلالة العباسيين، وهو ابنُ المعتصم، وحفيدُ هارون الرشيد. كان ذا طلّة ملكية، مُهابًا بين الجميع، ومع ذلك كان مبهجًا ومرحًا، لذلك علم الناس أن توفّرَ هذه المواهب والصفات في خليفتهم تنبئ بأن حكمَه سيكون طويلًا وسعيدًا. رغم ذلك كان غَضوبًا إذا تملّك الغضبُ منه، كادت نظراتُه تفتك بمَن أمامه، إلا أنّه كان يملك زمامَ أمره حتى لا يرهبه رعاياه.

النساءُ والطعام هما أفضلُ متعة على الإطلاق، ولأنه سخيٌّ وعفوٌّ وليس متكلّفًا تجمع الناس في بلاطِه وزاد رواده ومحبّوه. وكان يرى أنَّ الدنيا لا بدّ من أن تُعاش بمسرّاتها ومتَعها، وليس من الضروري أن يتقشّف الخليفة ويزهد حتى ينالَ الجنة في الآخرة كما فعل الخليفة عمر بن عبد العزيز.

في رأيه، فإنَّ القصر العظيم الذي بناه أبوه المعتصم على تلةٍ صخرية عالية تطلُّ على مدينة سامراء(2) كان ضيقًا للغاية! لذا أمرَ ببناء خمسةِ أجنحة إضافية، كلُّ جناح كالقصر، وخصَّص كلَّ جناح منهم لإرضاء حاسّة من حواسه الخمسة، ولذلك تفوق الواثقُ على كل مَن سبقوه في روعة البناء وبهائه.

في القصر الأول، كانت الطاولاتُ مغطاةً باستمرار بأشهى الأطعمة الفاخرة، التي كانت متوفرةً على مدار الليل والنهار وفقًا للاستهلاك المستمرّ للخليفة وزوّاره، في حين انسابتْ من مئات النوافير المختلفة أرقى أنواع النبيذ والمسكرات التي لم تنضب أبدًا. وكان يطلق على هذا القصر اسمُ قصر الوليمة الأبدية أو الوليمة التي لا تنتهي.

أما القصرُ الثاني فكان يسمى قصرُ الألحان أو مسكن الروح، حيث كان يعيش فيه أمهرُ الموسيقيين والشعراء المشهورين في ذلك الوقت، الذين لم يعرضوا مواهبهم داخلَ القصر فحسب؛ بل تفرّقوا في فرق، وخرجوا إلى المدينة، يطربون كلَّ مَن شاهدهم أو استمعَ إلى أغانيهم التي تتنوع باستمرار في سحرٍ متتابع.

وكان القصرُ المسمى بهجة الأعين أو دعامة الذاكرة يشكل إنشاءً ساحرًا بكامله.

فقد جُمعت النوادر من كل ركنٍ من أرجاء الأرض في هذا القصر بكمياتٍ هائلة، لدرجة أنها تدهش وتربك العيون، وقد وضعت بترتيبٍ يثير الإعجاب. عرض لوحات لنبي بابل ماني(3) المشهور وتماثيل تكاد تنطقُ بالحياة، رُتبت بمنظورٍ مدروس لتجذبَ الأنظار، وفي مكانٍ آخر، خدع السحر البصرَ بطريقة ممتعة للغاية، بينما قدّم العلماء الطبيعيون من جانبهم في فئاتهم المختلفة مختلفَ الهدايا التي منحها الله لعالمنا. لم يغفل الواثق في هذا القصر أيّ شيء يمكن أن يُرضي فضولَ أولئك الذين لا يشبع فضولهم، على الرغم من أنَّ ذلك لم يتمكن من إرضاء فضوله الخاص، حيث كان مِن بين كلِّ هؤلاء الرجال هو الأكثر فضولًا.

وكان قصرُ العطور الذي يُطلق عليه - أيضًا - اسمُ حافز اللذة، يتألّف من قاعات مختلفة، حيث كانتِ العطور المختلفة التي تنتجها الأرضُ تحترق باستمرارٍ في مَباخر من الذهب. وكانتِ الشموع والمسارج العطرية تشتعلُ هناك في ضوء النهار. ولكن يمكن تجنُّب آثار هذا الهذَيان الممتع بسبب الرائحة القويَّة بالنزول إلى حديقةٍ شاسعة؛ حيث ينتشرُ في الهواء روائحُ مجموعة من الزهور العطرية التي ينبعث منها أنقى العطور الطبيعية.

وكان القصرُ الخامس المسمَّى «ملجأ الفرح أو القصر الرهيب» يتميزُ بزيارته من قبَل جماعات من الإناث الشابات الجميلات اللاتي هنَّ لسنَ أقلَّ جاذبية من الحوريات، واللاتي لم يفوتنَ أبدًا فرصةَ الاقتراب وملاطفة كلّ مَن يسمح الخليفةُ له بالاقتراب منهن، فهو لم يكنْ غيورًا إلى هذا الحد، حيث إنَّ نساءه الخاصّات كنَّ معزولات داخل القصر الذي يسكنه بنفسه.

رغمَ انغماس الواثق في شهواته إلا إنَّ شعبه ظلَّ يحبه رغم ذلك، وذلك لأن الشعب - ونتيجة لما واجهه من قبل - فهمَ أن الحاكم الذي يهتمُّ بشهواته وينغمس فيها أفضلُ بكثير من الحاكم الذي يكرّس وقتَه لصنع أعداءٍ جدد للشعب فيرهقُه. ورغم حبه للشهوات حثَّت طبيعةُ الواثق العنيف والفضولية نفسَه التعلمَ والدراسة ومحاولةَ فهم العلوم وطبيعة الأشياء في عهد والده، ومع ذلك لم يكنْ ذلك كافيًا بالنسبة له، فقد كان يرغبُ في معرفة كلِّ شيء، حتى العلوم التي لم تُكتشف بعد.

كان يحب أن يحاج المثقفين والمتعلمين، ويشارك في المناقشات التي تدور بينهم. ولكن كان لذلك حدود، فقد كان يهبُ الهدايا والعطايا لكل مَن يرضى ويصمت عن رأيه المخالف. أما الشجعان - والذين لا تخضعهم هداياه - فكان يُخرسهم السجن، وهو علاجٌ ناجح في كثير من الأحيان. كما اكتشفَ أنه يميل إلى الانغماس في النقاش الديني، لكنه لم يكنْ في نقاشه مع أصحاب المنهج الوسطي، مما دفعَهم إلى بغضه. وكان يبحث عن ذريعةٍ لاضطهادهم، ووجدَ ضالّته حينما عزموا بُغضَه ومعارضته.

لقد رأى النبيُ العظيم محمد(4) في السماء السابعة، والذي يمثله الخلفاءُ في الأرض، بغضبٍ سلوكَ الواثق الجشع، وقال للجنّ الذين مِن حوله والذين هُم مستعدّون لصنع أيّ شيء من أجله:

- اتركوه لنفسه، لنرى إلى أيّ مدى سيصل جنونُه وكفره. وإذا تجاوز الحدودَ سننزل عليه سخطنا. ساعدوه في استكمال بناء البرج الذي بدأه، ليس كما فعلَ النمرود الذي كان يحاول النجاةَ من الغرق(5)، بل بسببِ فضوله الوقح في اختراق أسرار السماء، ولن يستطيع التنبؤ بالمصيرِ الذي ينتظره.

أطاعتِ الجنُّ أمرَ محمد، وعندما رفع العمّال بنيانهم ذراعًا في النهار أضاف الجنُّ ذراعين في الليل. لم تكنِ السرعة التي نشأ بها البرج سوى اختبارٍ لغرور الواثق. تصور أنه حتى القوى الروحية تساعدُه ليصعد درجةً في سلم تحقيق مخططاته، دون أن يفكرَ في أن بعضَ نجاحات الحمقى والأشرار قد تكون أولَ درجة في سلم الهاوية.

وصلَ كبرياؤه إلى ذروته عندما صعدَ للمرة الأولى إلى أعلى برجِه الذي يحتوي على أحدَ عشَر ألف درجة، حيث نظرَ أسفله ورأى الناسَ صغارًا كالنمل، والجبال كالصدف، والمدنَ كخلايا النحل. أثّرت هذه الارتفاعاتُ على مفهومه عن عظمته الذاتية وأربكته تمامًا؛ حيث كان على وشكِ أن يعبد نفسَه، إلا إنه عندما رفع عينيه للأعلى رأى النجومَ بارتفاعٍ يبدو مثل الذي رآه عندما كان يقف على سطح الأرض. على الرغم من إدراكه لهذا الأمر لكن ما زال يقول في نفسه على الأقل: أنا عظيم في

عيون الآخرين، واحتفى بأن ضوءَ عقله وبصيرته سيمتدّان بعيدًا عن نطاق بصرِه المحدود، وسينقل إلى النجوم مقاديره وأوامره.

من خلال هذه الرؤية، قضى الخليفة الفضوليّ معظمَ لياليه على قمة برجه، حتى أصبح متمكنًا من أسرار الفلك، وتصور أن الكواكب قد كشفت له عن أروعِ المغامرات التي سيقوم بها شخصٌ ما غير عادي من بلدٍ غير معروف. وحرصًا منه على معرفة هذا الشخص كان دائمًا ما يحتفي بالغرباء، ولكن من هذه اللحظة فصاعدًا زادَ اهتمامه، وأمر بالإعلان عن طريق المنادي في جميع شوارع سامراء أنه لا يجوز لأيٍّ من مواطنيه أن يستضيف أيًّا من عابري السبيل، وإنما يجبُ عليهم إحضارُهم على الفور إلى القصر. لم يمضِ وقتٌ طويل بعد هذا الإعلان حتى وصلَ إلى المدينة رجلٌ بشعُ المنظر لدرجة أنه حتى الحراس الذين اعتقلوه اضطروا لإغلاقِ أعينهم أثناء نقله للخليفة. حتى الخليفة نفسه بدا مندهشًا لرؤية شكله المرعب، ولكن تبدّلت الدهشة لفرح عندما عرض الغريبُ عليه أشياء نادرة لم يسبق له أن رآها، ولم يعلم عنها شيئًا من قبل. لم يكن هناك شيء أكثر غرابة في العالم من البضائع التي قدّمها هذا الغريب؛ فمعظمُ الأشياء العجيبة التي كان يبيعها - والتي كانت مذهلة سواء في طريقة صنعها وتزينها أو استخداماتها - كانت تحملُ فضلًا عن ذلك فوائدَ خاصّة معروفة ومذكورة على جلدةٍ مرفقَة بكلِّ واحدة منها. كان هناك نعالٌ تمكّن الأقدامَ من المشي دون إرادةٍ صاحبها، وسكاكين تقطع دونَ تحريك اليد، وخناجر تصيبُ الشخص الذي يريدون إصابتَه دون الاقتراب منه، وكل هذه الاختراعات مزيّنة بجواهر لم يُرَ مثلها من قبل. تلك السيوفُ التي كانت شفراتها ينبعث منها بريقٌ مذهل لفتتِ انتباه الخليفة بشكلٍ خاص، حيث وعد نفسَه بفكّ شفرة الأحرف الغريبة المحفورة على جوانبها في وقت فراغه. ومن دون سؤاله عن سعرها أمرَ بجلب كلِّ العملات الذهبية من خزينتِه، وأمر التاجرَ بأخذ ما يشاء، واستجابَ الغريب في تواضعٍ ودون أن ينبث.

ظنَّ الواثق أن صمتَ التاجر ناتجٌ عن الرهبة التي يلحقها وجوده، وشجّعه على الحديث، حين سأله بطريقة الملوك:

- مَن أنت؟ ومِن أين جئت؟ ومِن أين حصلت على مثل هذه البضائع الفريدة؟

وبدلًا من الرد، حكّ التاجر جبينَه ثلاثَ مرات، وكان جبينه وجسدُه أسودَ من سواد خشب الأبنوس، وضربَ على بطنه الضخم، وفتحَ عينيه الواسعتين اللّتين كانتا تلمعان كالنار، ثمّ بدأ يضحك بصوتٍ مرعب، مُظهرًا أسنانَه الطويلة ذات اللون الأبيض الممزوج باللون الأخضر.

وقد جدّد الخليفة - رغمَ دهشته - استفساراتِه، ولكن دون أن يحصلَ على رد. وحينها غضبَ بقوّة، وأردف صارخًا:

- أتعرف بمَن تستهزئ يا رجل؟ !

ثمّ خاطب حراسه:

- هل سمعتموه يتحدّث؟ هل هو أبكم؟

أجابوا:

- سمعْناه يهمس.

قال الواثق:

- دَعوه يتحدّث مرةً أخرى، فليخبرني مَن هو، ومِن أين أتى، ومِن أين اشترى هذه البضائعَ الفريدة؟ أو أقسمُ بكلّ ما هو مقدّس أنني سأجعله يندم على عناده.

على الرغم أنّ عينيه كانتا ترمقان عينيِ الخليفة الرهيبة إلا إنّ الغريب استمرّ في تحمل ذلك الشرر المنطلق من عينيِ الخليفة، وظل ثابتًا لا يتحرك. وحينما راقب البلاطُ ما حدث خفضوا رؤوسهم تجنبًا لغضبةِ الخليفة، وحفاظًا على حياتهم، واحمرّ وجهُ الخليفة واستشاطَ غضبًا، وصرخ بنبرة غاضبة:

- قوموا أيها الجبناء أمسكوا هذا الوغد! احتجزوه في السجن واخرسوه بأقوى جنودي، ودَعوه يحتفظ بالمال الذي أعطيته، لا أريد أن أنزعَ ممتلكاته، أريده فقط أن يتحدث.

وبمجرد أن قال هذه الكلمات، حوصرَ الغريب وصفِّد بأصفاد قوية، ثمَّ حملوه إلى سجن البرج الكبير، الذي كان محاطًا بسبعة من قضبانِ الحديد، ومزوَّدًا بأشواك مدبَّبة أحدّ من السيوف في كل اتجاه.

ومع ذلك، ظلَّ الخليفة في حالة غضبٍ شديد؛ فقد جلسَ ليتناول الطعام، ولكنه لم يتذوَّق سوى اثنين وثلاثين من الثلاثمائة طبق التي توضَع يوميًا أمامه. وكان هذا النظامُ الغذائي الضعيف والمحبِط بالنسبة للخليفة كافيًا أن يسلبَه النوم فكيف هو تأثيره عندما يرتبطُ بالقلق الذي ينهش روحه؟

وعند بزوغِ الفجر، توجَّه الخليفة متعجلًا إلى السجنِ ليستنطق الغريبَ العنيد مرة أخرى، ولكن غضبه تجاوز كلَّ الحدود عندما وجدَ السجن فارغًا، والأبوابَ مفتوحة، وحراسه يرقدون مقتولون حوله. وفي قمة غضبه انقضَّ الخليفة بعنفٍ على الجثث البائسة، وركلها بلا توقف حتى كادت الشمس أن تغيب.

وبالرغم من جهودِ أمراء البلاط والوزراء لتهدئةِ تصرفات الواثق الهائجة، إلا إنهم لم يقدروا على ذلك، وأخذوا يردِّدون فيما بينهم أن الخليفة أصابه الجنون! الخليفة فقد عقله!

صدى هذا الكلام - والذي انتشر سريعًا في شوارع سامراء - وصلَ أخيرًا إلى مسامع قراطيس(6) والدةِ الخليفة، فهُرعت بأقصى سرعتها وهي في حالةٍ من الرعب الشديد لتحاول السيطرةَ على عقل ابنها. وبفضل دموعها وعناقها حوَّلت انتباهَ الخليفة عن تلك الأحداث، وتمكَّنت من إقناعه بالعودة إلى القصر.

وكانت قراطيس قلقةً بشأن ترك الخليفة وحيدًا، لذلك طلبت من الخدم إسنادَه ليذهب إلى فراشه، وجلست بجواره محاولةً إرشادَه وتهدئته بحديثها. وكان من المستحيل على أيِّ شخص آخر أنْ يفعل ما فعلت، فالخليفة ليس فقط يحبها كأم، بل يحترمها كشخصيةٍ ذات عبقرية فائقة، حيث قامت بإقناعه - وهي ذات أصل يوناني - باتِّباع جميع العلوم والأنظمة التي رأتها في بلادها، والتي ينظرُ إليها المسلمون الصالحون نظرةً غير مصدقة. وكان الاسترشادُ بالنجوم أحدَ تلك الأنظمة التي كانت قراطيس ماهرة فيها، لذلك بدأت بتذكير ابنها بالوعد الذي قدَّمته النجوم

له، وأشارت إلى نيّتها استشارة النجوم مرةً أخرى لاكتشاف سبب مشاكله الأخيرة. واستمعَ الخليفة، الذي كان دائمًا مولعًا بالعلوم الخفيّة بشغف، وسمح لوالدته بمتابعة حساباتها الفلكية.

تنهّد الخليفة فورَ ما استطاع التحدث، وقال:

- يا للأسف، كم كنتُ أحمقَ، لم يأتِ في خاطري أنّ هذا الرجل الاستثنائي هو نفسه الذي تنبّأت به النجوم من قبل، والذي كان يجب عليّ أن أسترضيه بكلّ وسائل الراحة بدلًا من إيذائه.

قالت قراطيس:

- لا يمكن العودةُ إلى الماضي يا بني، ولكن يجب أن نفكرَ في المستقبل. ربما ترى الشخص الذي ندمتَ على معاملته بهذه الطريقة مرةً أخرى، ومن الممكن أن توفّر النقوشُ التي على السيوف بعضَ المعلومات عنه؛ لذا تناول طعامك واسترح قليلًا وسنفكر غدًا في كيفية التصرف.

حاولَ الخليفة اتباعَ نصيحتها بأفضل ما يستطيع، واستيقظَ في الصباح بعقل أكثر هدوءًا. وأمر بإحضار السيوف على الفور، وبعد أنْ راجعها بشكل جدّي مُستخدمًا زجاجة خضراء لتفادي التأثرَ ببريقها، حاول جاهدًا فكّ طلاسم النقوش، لكن كل محاولاته باءت بالفشل، ولم يتمكن من تحديد حرفٍ واحد من النص بأكمله. وكادت خيبةُ الأمل هذه أن تدمرَه مرة أخرى، لولا حظه السعيد عندما دخلت قراطيس غرفته في تلك اللحظة.

قالت:

- اصبز يا ابني فأنتَ بالتأكيد تعرف كلَّ العلوم ذات القيمة الكبيرة، ولكن معرفة اللغات ليست سوى أمر تافه، لا تليق إلا بالمتحذلقين من رعاياك. أصدز إعلانًا تعلنُ فيه أنك ستمنح مكافآتٍ مناسبة لمن يترجمُ ما لا تفهمه، وما هو دون مستوى قدراتك، وستجد قريبًا ما يرضي فضولك.

قال الخليفة:

- يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، ولكن في الوقت نفسِه سأكون منزعجًا بشدّة من حشدٍ مِن المتحدثين بالعربية السيئة الذين سيأتون لمحاولة نسج لغة مزيّفة جاهلة لا طائل منها، ناهيكِ عن الذين سيأتون لمحاول الفوز بالمكافأة. لتجنب ذلك سيكون من المناسب إضافةُ أنني سأقتل كلّ مرشح لا يستطيع إرضائي، فشكرًا لله، لديّ ما يكفي من المهارة للتمييز بين المترجم وصاحب البدعة.

ردّت قراطيس:

- لا شكّ في ذلك. لكن قتلُ الجاهل أمر قاسٍ إلى حدٍّ ما، وقد يؤدي إلى آثارٍ خطيرة. فلتكتفِ بأن تأمرَ بحرق لحاهم فهي ليست مساويةً للحياة عند الرجال.

وقد وافقَ الخليفة على مقترحات والدته، واستدعى وزيرَه الأول موركاناباد، وقال له:

- ليعلِن المنادون في كلّ مكانٍ، ليس فقط في سامراء، ولكن في كل مدينة في مملكتي، أنّ كلّ مَن يستطيع تفسير بعض النقوش التي يبدو أنها غيرُ قابلة للتفسير، فسأكافئه كما يليقُ بعظمتي. ولكن سأحرق لحى كلّ مَن يفشل في التجربة. ويمكنهم أيضًا إضافةُ أنني سأمنح خمسينَ جارية جميلة، وكميةً مماثلة من جِرار المشمش من جزيرة كيرميث(7) لأيّ رجل يجلب لي معلوماتٍ عن ذاك الغريب.

كان رعايا الخليفة مثلَ سيدهم، يشعرون بالإعجاب الشديد بالنساء، وجِرار المشمش القادمة من جزيرة كيرميث، ولكنهم لم يكونوا قادرين على الحصول عليها لأنه لا أحد يعرف في أيّ اتجاه ذهب الغريب.

أما بالنسبة لمطالب الخليفة الأخرى، فكانتِ النتيجة مختلفة. جاء المتعلمون ونصفُ المتعلمين والجهلاء الذين يظنون أنفسهم مؤهَّلين، ليحاولوا تنفيذَ هذه المهمة، ولكنهم فقدوا لحاهم بشكل مخزٍ.

حلقُ كلّ هذه اللحى التي كانت تتطلب عملًا كبيرًا من الخصيان جعلت رائحتهم كريهة جدًا، مما أصاب النساءَ في الحرملك باشمئزاز، لذلك كان من الضروري نقلُ

هذه الحرفة إلى أيدٍ أخرى.

وفي النهاية، قدّم رجلٌ عجوز نفسَه، وكانت لحيته أطولَ بذراع ونصف من أيّ شخص ظهر من قبله. همس جنودُ القصر لبعضهم البعض، بينما أدخلوه:

- يا للأسف لو حُرقت لحيته هذه!

حتى الخليفة نفسُه عندما رآه اتفق معهم بالرأي، لكن قلقه كان غيرَ ضروري تمامًا. فقد قرأ هذا العجوزُ النقوش بسهولة، وفسرها كلَّها، وكانت تقول: «لقد صُنعنا حيث صنع كلّ شيء مهيب؛ إننا أصغرُ عجائب مكان كلّ شيء مذهل، ويستحق أن يشاهدنا أعظمُ ملوك الأرض».

صاحَ الخليفة:

- إنك تترجمُ ببراعة، أعرف الآن ماذا يشير هذا النقشُ الرائع. ليحصل هذا الرجل على الثياب الفاخرة وآلاف القطع الذهبية بقدرِ كلّ كلمة تحدّث بها. لقد أصبحتُ إلى حدٍّ ما مرتاحًا من الحيرة التي أثقلت نفسي.

دعا الخليفة الرجلَ العجوز لتناول الغداء، وحتى البقاء في القصر لبضعة أيام، ولسوء حظّه وافق على العرض؛ لأن الخليفة بعدما أمرَ به أن يمثلَ أمامه في اليوم التالي قال:

- ارجغ واقرأ لي ما قرأته بالفعل لأنني لم أكتفِ بسماع الوعود التي أتوقُ لتحقيقها مرة أخرى.

وضعَ الرجل العجوز فورًا نظارتَه الخضراء أمام عينيه، ولكنها سقطت فورًا من على أنفه عندما لاحظ أنّ النقوش التي قرأها في اليوم السابق قد تبدّلت ليحلّ محلها حروفٌ ذات معانٍ مختلفة.

سأله الخليفة:

- ما بك؟! وما هذه الدهشة التي ظهرت على ملامحك؟

أجاب العجوز:

- يا مولاي، تتحدّث هذه السيوف اليوم بكلماتٍ مختلفة عما تحدثت به أمس.

قال الواثق:

- ماذا تعني بذلك، حسنًا لا مشكلة، أخبرني بما تقوله النقوش اليوم؟

أجاب العجوز:

- ويلٌ للمتهور الذي يسعى لمعرفةِ ما لا يجب أن يعلمَه، ويفعل ما يتجاوز قدراته.

صاحَ الخليفة بغضب:

- بل ويلٌ لك أنت، إنك اليوم قد فقدتَّ عقلك. اذهب من أمامي. سأحرق نصفَ لحيتك لأنك كنت محظوظًا في تخمين الأمر أمس، ولكن شفقتي لها حدود.

علمَ الرجل العجوز الذي كان حكيمًا بما يكفي ليدرك أنه نجا فقط لأنه محظوظ، وأيضًا لأنه علمَ بحماقة الكشف عن حقيقة كهذه، وأن يظلَّ في نفس المكان، وخاصّة أمام الخليفة، بل عليه أن ينسحب على الفور ولا يظهر مرة أخرى.

ولكن لم يمرّ وقتٌ طويل حتى اكتشف الواثق أنَّ لديه أسبابًا عديدة للندم على تعجُّله؛ فعلى الرغم من عدم قدرته على فك شفرة الحروف بنفسه إلا أنه لاحظَ بوضوح أنها تتغير كلَّ يوم، وللأسف لم يأتِ أيُّ شخص آخر لتفسيرها. هذا الأمر المحير أدى إلى ارتفاع درجة حرارته وظهرَ ضباب على بصره، وأصابه دوارٌ وضعف لم يستطع تحمله. ومع ذلك لم يتوقفِ الواثق على الرغم من حالته المتدهورة عنِ الذهاب إلى برجه بشكل متكرر، حيث إنه كان يتوقع أن يقرأ في النجوم شيئًا يتماشى مع رغباته. ولكن آماله تحطمت، حيث إن بصره الضبابي بسبب كثرة تفكيره وانشغاله الدائم لم يرَ شيئًا سوى سحابةٍ كثيفة، واعتبرها أسوأ العلامات المشئومة التي قد تظهر لمنجّم.

ومن كثرة القلق الذي شغله، هزلَ جسده وفقد قوتَه. أصابته حمى شديدةٌ وتراجعت شهيته. فبدلًا من أن كان من بين أكبر المتناولين للطعام في العالم صار مشهورًا بشُربه الكثير من الماء. فكان لا يشبع من الشرب مما يجعل ذلك من فمه

كمثل قمعٍ يستقبل فيه من جميع السوائل المختلفة التي تصبّ فيه، وخاصة الماء البارد الذي يهدئه أكثر من غيره.

وبسبب هذا الوضع الذي أصابَ هذا الخليفة البائس؛ فقد عجزَ عن الاستمتاع بأيّ متعة ظاهرة، مما دفعه لأن يأمر بإغلاق قصور الحواس الخمس، وامتنعَ عن الظهور في الأماكن العامة، سواء لمباشرة شئون رعيته أو حتى للتفاخر بمجده وآبائه، وانسحب إلى أبعدِ غرفة في الحرملك. وكونه كان دائمًا قريبًا من زوجاته فإنهنّ كنّ غارقاتٍ في الحزن على وضعه المثير للشفقة، كنّ في دعاء مستمر من أجل تحسّن صحته، ومشغولاتٍ دائمًا بتوفير الماء له بشكلٍ دائم.

وفي الوقت نفسه، كانتِ الأميرة قراطيس - التي لا يمكن وصفُ مدى حزنها - بدلًا من الاكتفاء بالبكاء والدموع تجتمع يوميًا مع الوزير موركاناباد للبحث عن علاجٍ أو شيء يخففُ مرض الخليفة. وتحتَ الاعتقاد بأن المرض يرجع إلى السحر قاما بالتحقق معًا من جميع كتبِ السحر التي قد تشير إلى علاج، وأمروا بالبحث عن الغريب الرهيب، الذي اتُّهموه بأنه الساحر الذي أمرضَ الخليفة في كل مكان بأشدّ الجهد، وبدقة بالغة.

على بُعد بضعة أميال من سامراء، يقع جبل عالٍ، تغطي جوانبَه الأعشابُ البرية مثل الزعتر والريحان، ويغطي قمته سهل رائعُ المنظر بحيث يمكن اعتبارُه كأنه الفردوس المخصَّص للمؤمنين. تنمو على قمته مائة غابة من الورد البري والشجيرات العطرية الأخرى، ومائة مظلة من الورود المختلفة والياسمين وزهر العسل، وكذلك العشرات من أشجار البرتقال والأرز والليمون، وفروعها المتشابكة مع التمر والرمان والكرمة، تقدم كلّ ما يمكن أن يسعدَ العينَ أو الذوق. وكانت الأرض ممتلئة بالبنفسج والزنبق البري والورد الياقوتي، وفي وسطها تنبت حزمٌ من النرجس والقرنفل، والعطر يملأ كلَّ المكان. وكانت هناك أربعةُ ينابيع واضحة وعميقة، وغزيرة بما يكفي لإرواء عطشِ عشرة جيوش، بدث أنها وضعت بسَخاء هنا لجعل المشهد يشبه جنةَ عدن، والتي تروى بأربعة أنهار مقدّسة(8). هنا، غنى البلبل لمولد الورد الذي يحبه، وفي الوقت نفسه نعى جمالها المؤقت. في حين أنّ السلحفاة ندبت حظها

لفقدان هذه المتع الرائعة، بينما رحّب العصفور بالضوء الصاعد الذي يحيي جميعَ المخلوقات. هنا أكثر من أيّ مكان آخر، تعبّر أصواتُ الطيور المختلطة عن المشاعر المختلفة التي تلهمُها، كما لو أنّ الفواكه اللذيذة التي تطعمها بمتعةٍ منحتها طاقةً مضاعفة عن باقي المخلوقات.

كان الواثق يحضر في بعض الأحيان إلى هذا الجبل ليتنفّس هواءً نقيًا، وخصوصًا ليشرب من أربعة ينابيع كانت تشتهر بأنها مُفيدة له ومُقدّسة بدرجة عالية. وكان يُحضر معه أمّه وزوجاته وبعض الخصيان المُخلصين الذين كانوا يعملون بجدّ لملأ الأواني الكريستالية الكبيرة، ويقدمونها له ليشرب. ولكن كثيرًا ما تجاوز شغفُ الواثق حماسةَ خدمه، حتى إنه كان ينحني على الأرض ليشرب من الماء الذي لم يكنْ يكفيه.

وفي يوم من الأيام، عندما كان الخليفة البائس مستلقيًا لفترة طويلة في وضع مهينٍ للغاية، تحدّث صوتٌ خشن ولكنه قويٌ إليه قائلًا:

- لماذا تشربُ كالكلب أيها الخليفة؟ أتغامر بكرامتك وقوتك؟!

عندما سمع هذه الكلمات، رفع الخليفة رأسَه ونظر إلى الغريب الذي سبّب له الكثيرَ من الألم. وهاجَ وغضب مما رأى وصاح:

- أيها الملعون الكافر لماذا جئتَ إلى هنا؟ أليس كافيًا أنك حوّلت خليفةً مشهورًا بحيويته إلى إربةِ ماء من الجلد كالتي يحملها بذو العرب على جِمالهم عندما يعبرون الصحاري؟ ألا تدرك أنني قد أفني نفسي بسبب شرب الماء بكمياتٍ كبيرة كما قد أفنى بسبب الامتناع التام عن شربه؟

فأجابَ الغريب بتقديمه زجاجة من مزيجٍ أحمر وأصفر اللون، قائلًا:

- اشربْ هذه الجرعة لإرواء عطشك. فلتعلم أنّني من الهند، لكن من إقليمٍ في الهند غير معروفٍ تمامًا.

فرحَ الخليفة بما تحقّق من مراده، وأسعد نفسَه بأمل تحقيق كاملِ رغباته، ومن دون تردُّد ابتلع الجرعةَ المقدمة إليه. وفجأة أحسّ بتحسّنٍ في صحته وزالَ عطشه،

وعادت حيويته وحركته كما كانت في سابق عهده.

وفي خضمّ فرحه وسعادته باستعادة صحتِه، قفز الواثق على الهندي المخيف يحتضنُه ويقبّله، ويتقافز في الهواء كالمجنون، ولولا أن الأميرةَ قراطيس - بكل فنون التلطف - قامت بتهدئة ابنها وإبطاء حماسه، لما انتهت صحوتُه المفاجأة إلى هذا الحد. بعد أن نجحت في إقناعه بالعودة إلى سامراء، أمرت بأن يسبقَه هناك مُعلنٌ ينادي بأعلى صوته: «عاد الغريبُ العجيب مرّة أخرى، شفيَ الخليفةُ واستعاد صحته».

فورًا، ترك سكانُ هذه المدينة الضخمة مساكنهم وجروا بحشودٍ هائلة إلى مكان مرور الواثق والهندي، وأصبحوا يباركون للهندي بقدرٍ ما كانوا يَلعنونه من قبل، ويصيحون بلا توقف: «شفيَ الخليفة، واستعاد صحته» ولم تهدأ هذه الكلمات في الاحتفالات العامة التي تمّت في نفس المساء للتعبير عن الفرحة، واستخدم الشعراءُ هذه الكلمات لكلّ الأغاني والأناشيد التي قدموها.

وفي الوقت نفسه، أعاد الخليفة فتحَ قصور الحواس الخمسة مرّة أخرى، وأمر فورًا بتنظيم حفلة مبهجة، دعا إليها جميعَ حراسه الكبار ورجالَ حاشيته المفضّلين لديه، والهندي الذي وُضع مجلسه بالقرب من الخليفة، والذي كان الحاشية يظنون أنه لا يمكنه أن يأكل أو يشربَ أو يتحدث إلا بالقليل، وذلك لإظهار امتنانه لهذا الفضل الكبير أنْ قرّبه الخليفة من مجلسه. إلا إنه وبمجرّد وضع الطعام يختفي على الفور من المائدة إلى فم الهندي، مما أثار استياءَ الخليفة، الذي كان يفتخر بأنه أكثر الرجال نهمًا على قيد الحياة، وفي هذا الوقت بالذات كان لديه شهيةٌ جيدة. وقد نظر بقية الحضور إلى بعضهم في دهشة مما يفعله الهندي الذي يبدو أنه لم يلاحظ نظراتهم، كان يشرب أكوابًا كبيرة في صحة كلّ واحدٍ منهم، وكان يغني بأسلوبٍ فظ، ويحكي قصصًا يضحك بسببها كالأبله، وينطق بأشعارٍ مبتكرة، لكنها كانت مقزّزة بسبب التعابير الغريبة التي ظهرت على وجهه حين نطق بها. كان لسانُه ينطق كلسان مائة رجل، وكان يأكل ويشرب كما يأكل ويشرب مائة رجل.

وعلى الرغم من أنّ المائدة جدّدت بالطعام ثلاثين مرّة، وجد الخليفة نفسَه يعاني

من جشع ضيفه الذي أظهر من خلاله عدمَ تقديره للخليفة بشكل ملحوظ. ومع ذلك، كان الواثق الذي لم يكنْ يريد أن يُظهر حقيقة الأسف الذي بداخله، والذي كان بالكاد يُخفيه، يقول بصوت خافتٍ لبابالوك؛ رئيس خصيانه:

- ثُرى مدى قوة أدائه في الأشياء الأخرى؟ ماذا سيحدثُ لو حصل على إحدى نسائي؟ تنبّه جيدًا، وتأكد من النظر إلى نساء الشركس(9)، ومعرفة التي ربما ستكون أكثر ذوقًا له من غيرهن.

غرّد طائرُ الصباح ثلاثَ مرات منبئًا بقدوم الفجر وإشراق الشمس، وحينها دقّت ساعةُ الديوان، ونهض الواثق من الطاولة وحاول ضبطَ هندامه، وكان يتوكّأ على وزيره الذي كاد يسقطُ من شدّة اضطراب الخليفة بسبب الخمر التي شربها، وأكثر من ذلك، بسبب سلوكِ ضيفه المتهور والمثير للقلق.

قام الوزراء وبقيةُ الحاشية والتفّوا حول الخليفة، وحافظوا على هدوئهم وسفتهم أمام الخليفة، في حين ظلَّ الهندي جالسًا لا يتحرك، والذي بدا هادئًا كأنه كان صائمًا ولم يأكل هذه الكميةَ الضخمة من الطعام والشراب، ودون أن يلتزم بمراسم احترام الخليفة؛ بل كان يضحك في سرّه للغضب الذي أثاره تجرُؤه في الليلة السابقة.

وبينما كان الخليفة - الذي كانت أفكاره مشوشة ورأسه قد أصابه الصداع - يقوم بإدارة الجلسة بشكلٍ عشوائي ومضطرب، قررَ الوزير الأولُ - الذي لاحظ وضعه - تدبيرَ حيلة مفاجئة لإيقاف الجلسة وإنقاذ شرف سيّده. وقال له هامسًا:

- يا سيدي، تحذّرك الأميرة قراطيس التي قضتِ الليل في استشارة النجوم، أنها تنبّأت لك بالشّر والخطر، وأخبرت أنهما قريبان منك. احترس من هذا الغريب الذي أعطيته مقابلًا لكذبه، فقد يحاول الاعتداءَ على حياتك، وربما يكون مشروبه الذي بدا أنه شفيك ليس إلا سمًا يعمل بطريقة ما. لا تستهتز بهذه الشكوك، اسأله على الأقل ممَّ صنعَ مشروبه، ومن أين حصلَ عليه؟ ولا تنسَ السيوف التي يبدو أنك نسيتها بالفعل.

أصبحت تصرفاتُ الغريب غير المهذبة أمرًا لا يحتملُه الخليفة، فأشار بإيماءةٍ

موافقةٍ إلى وزيره على أنه سيتبع نصيحته، ثمَّ وجَّه كلماته نحو الهندي، قائلًا:

- قف وأفصح في المجلس العام عن المزيج الذي أعطيته لي لأتناوله، فإنَّ هناك شبهة دائرة أنها سامة؛ كما أريد منك شرحًا وافيًا حولَ السيوف التي بعتها لي، وبذلك تظهر امتنانَك للمعروف الذي قدمته لك.

وجَّه الخليفة هذه الكلمات بتأنٍّ وهدوء قدرَ المستطاع، ثمَّ انتظر بصمت الرد، ولكن الهندي - الذي بقي جالسًا - بدأ يكرر لمن أمامه الضحكاتِ العالية والتعابير المرعبة التي سبق أن فعلها دون أن يجيب بأيِّ كلمة. لم يعدِ الواثق يتحملُ هذا الاستهتار بجلاله، فقام على الفور وركلَ الهندي من المقعد، ثمَّ نزل إليه وكرر ضرباتِه بقوة وعنف، ما دفعَ مَن حوله للمشاركة في ضرب الهندي. وكانوا يضربون الهندي بأقدامهم، وكان الهندي إذا ما تعرَّض لركلة، يكور نفسَه حتى يتجنب الضربات، وساعدَه قصرُ قامته وضخامة جسده على ذلك، فقد تحوَّل إلى ما يشبه كرةً صغيرة وسمينة، وانطلق يجري في القصر، وكان يتلقى ضرباتٍ مِن مهاجميه من جميع الجهات، حيث كانوا يلاحقونه أينما ذهبَ بحماس لا يمكن تصوره، وكان عددهم يتزايد باستمرار. وكانت الكرة السمينة، عندما تمرُّ من غرفة إلى أخرى تجذب نظرَ كلِّ شخص يشاهدها، بحيث أدَّى ذلك إلى فوضى عارمة في القصر بأكمله، وأصبحت تتردد أصواتٌ صاخبة في كل مكان. ثمَّ ذهبت نساءُ الحرملك إلى نوافذهنَّ لمعرفة سبب الضجيج، ولكن عندما نظرن إلى الكرة السمينة التي تتحرك، لم يتمكنَّ من الامتناع عن الانضمام إلى الحشود المتبعة لها، ولم يستطعِ الخصيان السيطرةَ عليهن، حيث لم يكن بإمكانهم إيقافُ هروبهنَّ من الحرملك؛ بل كانوا يحاولون منعَهنَّ بالقوة، لكن دون جدوى. وبالرغم من رعبهم الشديد من هذه المفاجأة، لم يكنْ بإمكانهم مقاومة الجاذبية الغريبة التي تملَّكتهم. وبعدما عبر الهندي الصالات والممرات والغرفَ والمطابخ والحدائق والإسطبلات في القصر، اتجه أخيرًا عبرَ الباحات، في حين كان الخليفة يتابعه عن كثب، ويوجِّه له العديد من الركلات قدر ما يستطيع، لكن الخليفة نفسه تلقى بعضَ الركلات من الذين كانوا يستهدفون الهندي بحماس.

قراطيس وموركاناباد واثنان أو ثلاثة من الوزراء الكبار الذين كانت حكمتُهم حتى الآن تقاوم هذه الجاذبية، أرادوا منع الواثق من تعريضِ نفسه أمام شعبه للإحراج، فوقفوا في طريقه لعرقلة المطاردة. لكنه دون أن يلتفتَ إليهم قفزَ فوق رؤوسهم وواصل السيرَ كما كان. ثمَّ أمروا المؤذنين بنداءِ الناس للصلاة، لكي يخلوا المكانَ أو يتضرعوا لله كي ينهي هذه الجائحة، ولكن لم تكن أيٌّ من هذه الوسائل ناجحة، فقد كانت رؤيةُ هذه الكرة السمينة تتدحرج كافيةً لجذب كل مَن ينظر إليها. حتى المؤذنين أنفسهم، على الرغم من أنهم رأوها من مكان بعيدٍ إلا إنهم لم يستطيعوا المقاومة، وسارعوا إلى النزول من المآذن والانضمام إلى الحشود التي استمرت في الزيادة بطريقة مدهشة، حتى لم يتبقَّ سوى الكبار في العمر والمرضى المحجوزين في أسرَّتهم، والرضَّع الذين يمكن أن تركض مربياتهم من دونهم. حتى قراطيس وموركاناباد وغيرهما انضمّوا إلى الحشود في النهاية.

صرخاتُ الإناث اللواتي اندفعنَ من بيوتهنَّ ولم يتمكنَّ من تحرير أنفسهنَّ من ضغط الحشود الضخمة، كانت عالية للغاية، إلى جانب صرخات الخصيان الذين كانوا يتدافعون خلفهنَّ خيفة أن يغيب الهندي عن بصرهم، ويتلقون الضرباتِ والشتائمَ من الذين خلفهم، مخافةَ أن يتعثروا بسببهم. وسادتِ الفوضى في كل مكانٍ مما جعل سامراء شبيهةً بمدينة فارغة اجتاحتها عاصفة، ويسهل نهبها من اللصوص.

وأخيرًا، الهندي الملعون الذي لا يزال يحتفظ بجسمِه الدائري، بعد أن مرَّ بجميع الشوارع والأماكن العامة وتركها فارغةً من الناس الذين اتبعوه؛ توجَّه نحو السهل وعبرَ واديًا على سفح جبل النوافير الأربعة. ونظرًا لأن السقوط المستمرّ للمياه في هذا المكان قد حفر حفرةً هائلة في الوادي، وكان الجانب المقابل مغلقًا بانحدار شديد، كان الخليفة ومرافقوه يخشون أن ينزل الهندي باتجاه الهاوية، ولمنع ذلك زادوا جهدهم في الجري وراءه، ولكن دون جدوى. استمرَّ الهندي في اتجاهه السابق، وكما كان يخشى الخليفة، انطلق الهندي من على حافَّة الهاوية بسرعة البرق واختفى في الجوف أسفلهم.

وكان الواثق عازمًا على متابعة اللحاق بالهندي لولا تدخلُ قوة غير مرئية أوقفت

تقدمَه. وبنفس الطريقة توقفت الجموعُ الغفيرة التي كانت خلفه، وتلاشى الضجيجُ وانقسم الناسُ في الحال إلى مجموعات صامتة. وكانوا يحدقون في بعضهم البعض بعينين مَفتونتين، وعلى الرغم من فقدان النساء لحجابهنَّ والرجال للعمامات، وتمزق الملابس والغبار المختلط بالعرقِ الذي كان قد يشكل منظرًا مضحكًا للغاية في موقف آخر؛ إلا إنه لم يكن هناك ابتسامة واحدة. بل على العكس، عاد الجميعُ بملامحِ الارتباك والحزن في صمت إلى سامراء، ودخلوا إلى بيوتهم في صمت، دون أن يتفكروا في أنهم دُفعوا إلى هذا السلوك الجنوني بقوةٍ غير مرئية، والذي انتقدوا أنفسهم عليه لأنه من المنصف أن يتفكرَ الرجال فيما صنعوا، وأنهم ذوو إرادة حرة وليسوا أدواتٍ يُحرِّكونَ دون إرادتهم.

الخليفةُ كان الشخصَ الوحيد الذي رفض مغادرةَ الوادي. وأمر بنصب خيامِه هناك، وقرَّب خيمتَه من الحافة، على الرغم من تحذيرات قراطيس وموراكاناباد، اللَّذين أشارا إليه نحو خطرِ انهيار الحافة وقربِ خيمته من الساحر الذي عذَّبه بشدة. لكن الواثق ازدرى جميعَ مخاطباتهم، وبعد أن أمرَ بإضاءة ألف شعلة، وأوصى خدمَه بإضاءة المزيد، اقتربَ من حافة الهاوية الزلقة، وحاول بمساعدة هذه الإضاءة أن ينظر خلالَ الظلام، الذي لم تكن جميعُ الإضاءة التي في السماء قادرةً على اختراقه. وفي بعض الأحيان، تخيّل أصواتًا تنبعث من عمق الهاوية، وفي أحيان أخرى بدَا أنه سمع صوتَ الهندي، لكن في الحقيقة كلُّ هذه الأصوات لم تكن إلا همساتِ المياه الهادرة، وضجيج الشلالات التي تتدفق بين الجبال.

بعدَ قضاء ليلة في هذا الاضطراب القاسي، انسحب الخليفة عند شروق الشمس إلى خيمته، حيث غفَا حتى بدأ الظلامُ يغشى المكانَ مرة أخرى دون أن يتناول أيَّ طعام أو شراب. ثمَّ استأنف وعيدَه كما خطط، واستمر في مراقبته لعدَّة ليالٍ متتالية. وفي النهاية شعرَ بالإرهاق من هذا العمل عديم الجدوى وجالبِ الضجر، ولتغيير ذلك كان يتجوَّل أحيانًا بخطوات سريعة عبرَ السهل، وبينما كان يحدقُ بالنجوم كان يتهمُها بخداعه، لكن فجأة ظهرت السماءُ الزرقاء الصافية مغطّاة بسحابة من الدماء، تمتدُّ من الوادي حتى سامراء. وبينما بدت هذه الظاهرة الرهيبة كأنها تلامس برجَه، فكَّر الواثق في البداية في الذهاب إلى هناك لرؤيتها بوضوح

أكبر، لكنه شعر بعدم قدرته على المضيّ قُدمًا، وغلب عليه الخوفُ والرهبة وقام بتغطية وجهه بثوبه.

على الرغم من خطر ما حدث، إلا إنّ هذا الحدث الجلل لم يزدِ الخليفة إلا تعلقًا بالعجائب التي رآها، وحبًا ورغبة في معرفة المزيد والاطّلاع على ما يشبع شغفَه. لذلك عوضًا عن العودة إلى قصره أصرَّ على البقاء في المكان الذي اختفى فيه الهندي من أمام عينيه. وفي إحدى الليالي، بينما كان يسيرُ كالعادة عبر السهل، اختفى القمر والنجوم بشكلٍ مفاجئ، وحلَّ ظلامٌ دامس واهتزتِ الأرض تحت قدميه، وخرج صوتُ الهندي، الذي يشبه صوتُه الجَهوريُّ صوتَ الرعد:

- بغ نفسك لي! اعبدِ الدنيا وابتعد عن محمد. وإذا فعلت ذلك سآخذك إلى قصر النار السفلي، هناك سترى في مستودعات هائلة الكنوزَ التي وعدتك بها النجوم، من هناك أحضرتُ سيوفي، وهناك يرقد سليمان(10) بن داود، محاطًا بالطلاسم التي تسيطر على العالم.

ارتعشَ الخليفة المذهول من إجابته، ولكن حاول التماسك، وبأسلوب يُظهر أنه عالمٌ بما يحدث أمامه من معجزات:

- أينَ أنت؟ اظهز أمام عيني، وأخفِ الظلامَ الذي أنت سببٌ فيه. بعد كل المشاعل التي أشعلتها للبحث عنك، يجب أن تدعني ألقاك مرة أخرى.

ردَّ الهندي:

- ابتعد عن محمد، وعذني بأدلة كاملة على صدقك، وإلا فلن تراني مرة أخرى.

وبدافعٍ من فضوله الذي لا يشبع، وعدَه الخليفة ما طلب. ومالبثت بعد ذلك أن صفتِ السماء، وبنور النجوم التي بدث وكأنها تشتعل رأى الخليفة الأرضَ مفتوحة، وفي طرف الهوَّة السوداء الهائلة، بوابة من الأبنوس وقد وقف الهندي الذي ازداد سوادًا ومعه مفتاح ذهبي في يدِه.

صاحَ الخليفة:

- كيف أستطيع النزولَ إليك دون أن ينكسر عنقي؟ تعالَ وخذني، وافتح الباب على الفور.

قال الهندي:

- لا تستعجلْ أيها الخليفة، أنا عطشان ولا يمكنني فتحُ هذا الباب حتى أسيطرَ على عطشي تمامًا. أحتاج إلى دمِ خمسين من أجمل أبناء وزرائك ورجالك العظماء، وإلا فلن يشبعَ عطشي ولا فضولك. عذ إلى سامراء وأحضر لي هذه القرابين الضرورية. عذ ثمَّ ارمِها بنفسك في هذه الهوة، ثمَّ سترى!

بعدما تحدثَ الهندي، أدار ظهرَه إلى الخليفة الذي قررَ بعد أن وسوسَ له الشيطان أن يضحي بهذه الطريقة المروّعة. قام بالتظاهر بأنه استعادَ هدوءه وانطلق نحو سامراء وسطَ تصفيقات الشعب الذي ما يزال يحبه، والذي فرحَ عندما ظنَّ أنه استعاد عقله. نجح الخليفةُ في إخفاء اضطراب قلبه بحيث أن حتى قراطيس وموراكاناباد كانا مخدوعين كما انخدع الآخرون. انتشرتِ الاحتفالات والتهليلات والضحكات، على الرغم من أن العديد من الأشخاص ما يزالون يعانونَ من الجروح التي تركت أثرًا بالغًا في أعماقهم خلال تلك المغامرة الصعبة.

أظهرَ الواثق مشاعرَ الودّ للجميع ولكن ما خفيَ كان أعظم؛ حيث أدرك الواثق أنَّ إظهار تلك المشاعر ستساهم في إنجاح مخطّطه، وكان لوزرائه وأعيانِ بلاطه نصيبُ الأسد من تلك المشاعر الزائفة؛ لذا انتهزوا الفرصة جميعًا وحضروا إلى مأدبةِ الخليفة التي أقامها في قصره، وأثناء ذلك كان الواثق - ودون أن يدري - يخاطب أبناءَ الوزراء والأعيان، ويوليهم الاهتمامَ دون آبائهم. وسأل بذكائه الحاضر:

- ترى مَن يمتلك بينكم يا وزرائي أجملَ وأذكى طفل؟

هبّوا جميعًا يتفاخرون بأبنائهم، ويدّعي كلُّ واحد منهم أنَّ ابنه هو أجمل الأطفال وأذكاهم، وحميَ النقاش حتى كادوا يشتبكون بالأيدي لولا احترامُهم لمقام الخليفة، الذي تدخل من فوره وأمر بإحضار الأبناء حتى يتعين عليه اختيارُ الأفضل من بينهم، وذلك لحرص الخليفة على إنهاء هذا الشقاق.

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى ظهرت مجموعة من هؤلاء الأطفال المساكين، الذين جهزتهم أمهاتهم المحبّات جميعًا بزينةٍ لإبراز جمالهم وذكائهم. وفيما جذب هذا التجمع الرائع أنظارَ وقلوب كل مَن حضر، فإن الخليفة كان يفحص كلَّ واحدٍ منهم بدوره بتركيز شديد، واختار مِن بينهم الخمسين الذين يعتقد أنَّ الهندي سيفضلهم.

وكسخائه المعتاد، اقترحَ الواثق الاحتفالَ على السهل لترفيه أصدقائه الصغار، الذين يجب أن يفرحوا أكثر من الجميع باستعادة صحته، وبسبب عزمه على إعطائهم الهدايا الفخمة.

فرحَ الناس كثيرًا باقتراح الخليفة، وانتشر الخبر في كلِّ مكان في سامراء حيث جهزت الأسِرة والجمال والخيول. ووضع كلّ شخص نفسَه في المكان الذي اختاره. وبدأ الموكب يجوب المدينة وضواحيها، وكان الناس يتبعون الموكب على الأقدام فيشكلون حشدًا رائعًا ولم يتذكر أحدٌ منهم ما عانوه عندما ذهبوا نحو السهل لأول مرة وراء الهندي؛ لأنهم الآنَ سعداء ويمرحون.

كان اليوم هادئًا، والهواء منعشًا، والسماء صافية، والزهور تفوح بعبيرها. أشعة الشمس الهادئة بلمعانها الرقق ترتاح على قمة الجبل، تسلط توهجًا من الضوء الأحمر على المنحدر الأخضر وقطعان الخراف البيضاء التي تلهو عليه. لم يكن هناك أيُّ صوت يُسمَع إلا همسات النوافير الأربعة وأصوات الرعاة الذين ينادون بعضهم البعض من قمم مختلفة.

أضافَ الأطفال الأبرياء الذين يتجهون نحو المخطط لهم البهجةَ إلى المشهد. اقتربوا من السهل وهم يلعبون، بعضهم يهرولُ وراء الفراشات، وبعضهم يقطف الزهور، أو يلتقطون الحصى الصغيرة اللامعة التي تلفت انتباههم، ويلعبون مع بعضهم البعض، ويختلفون، وسرعان ما يتصالحون ويتعانقون كالملائكة.

ظهرتِ الهاوية المخيفة التي كان بابها مصنوعًا من الآبنوس من مسافة بعيدة؛ بدث كخط أسود يفصل السهل. اعتبر موركاناباد ورفاقه أنَّ ما يحدث عملٌ طلبَه الخليفة؛ لذا كانوا سعداء بدورهم، ولم يشكوا أبدًا فيما هو مقدّر لهم.

لم يردِ الواثق أن يقتربوا أكثر؛ لذلك أوقف الموكب، وأمر بنصب الخيام في هذه المنطقة. على بعد كبير من الهاوية الملعونة. أمرَ الخليفة الحرسَ بإعداد مناطق الألعاب، وفرد حبالٍ حول الضحايا لمنع تدافع الحشود. خلع الأولاد ملابسَهم إلا ما يستر عورتهم، وعرضوا أنفسَهم على الناس بطريق استعراضية. تألقت أعينهم بفرحة انعكست على أعين آبائهم المحبّين. تهامس الناس فيما بينهم، هذا أفضل، هذا أفضل، وتنافسوا بينهم في تحديد مَن سيفوز. كان هناك توترٌ في المشهد العام، لكنه مشوّق، خاصّة في انتظار المنافسة بين هؤلاء الضحايا اللطفاء والأبرياء.

انتهزَ الخليفة أولَ فرصة سانحة وانفصلَ عن الحشد مقتربًا من الهوّة، وهناك سمع صوتَ الهندي المرعب يقول:

- أين هم؟ أين هم؟ ألا تدرك كيف أني ظمآن لملاقاتهم؟

قال الواثق:

- أيها الهندي أليسَ في قلبك رحمة، ألا يمكن أن ترضى بأيّ شيء غير القضاء على هؤلاء الأبرياء. لو رأيتهم فسيتحرّك بالتأكيد قلبك.

فصرخَ الهندي بصوت مرعب:

- عليك اللعنة يا ثرثار، عن أي قلبٍ تتحدث؟ أعطهم لي، أعطهم لي على الفور، أو سأغلَق بوابتي أمامك إلى الأبد.

أجابَ الخليفة وهو ينظر خلفه في ارتباك:

- أرجوك لا تصرخ بصوت عال.

ردّ الهندي بابتسامة صفراء مخيفة:

- أفهمك. أنت تريد أن تستجمعَ شجاعتك، سأتركك للحظة.

خلالَ هذا الحوار الذي دار بين الخليفة والهندي، كان الناس منهمكين في الاستمتاع بالأجواء والألعاب الدائرة هناك، وانتهت أخيرًا بمجردِ ما انسدل ستارُ النهار؛ لذا صاح الواثق، الذي كان ما يزال يقف على حافة الهوّة، بكلّ قوته:

- دَعوا الخمسين الصغار يقتربون مني بشكل منفصل، وليأتوا في ترتيب نجاحهم. للأوّل سأعطي سواري من الماس، وللثاني عقدي من الزمرد، وللثالث أسورتي من الياقوت، وللرابع حزامي المرصّع بالأحجار الكريمة، وللآخرين جزءًا من ملابسي، حتى حذائي.

استقبلت هذه الإعلانات بالتصفيق المتكرر، وأثنى الجميعُ على سخاء الخليفة الذي يتخلى حتى عن ملابسه لتسلية مواطنيه وتشجيع الأجيال الصاعدة.

وفي الوقت نفسه، بدأ الخليفة يخلع ملابسَه بشكل تدريجي، ويرفع ذراعَه بأقصى ما يستطيع ليجعل كلَّ جائزة تلمع في الهواء. ولكن بينما يسلم الجائزة بيدِه إلى الطفل الذي يتحرك لاستلامها، يدفع الأطفالَ الأبرياء باليد الأخرى إلى الجحيم، حيث كان يكررُ الهندي بتمتمةٍ متعالية بلا توقف:

- المزيد! المزيد!

نُفّذت الخطة الرهيبة بذكاءٍ كبير حتى إن الطفل الذي كان قريبًا منه لا يدرك مصيرَ سلفه. وأما المشاهدون، فقد حجبتهم ظلالُ المساء والمسافة عن رؤية أيّ شيء بوضوح. وبهذه الطريقة، ألقى الواثق الولدَ الأخير من الخمسين، وآملَ أن يعطيه الهندي المفتاحَ عند استلامهم، وتخيل نفسَه بالفعل مثل سليمان، وبالتالي يكون فوق المحاسبة عمّا فعله. ولكنه أصابته الدهشةُ عندما وجد الهوّة قد أغلقت، وأصبحت الأرض كاملة مثل باقي السهل!

لا يمكن لأيّ لغةٍ أن تعبر عن غضبه ويأسه. لعنَ خيانة الهندي، وأخذ يسبه بأسوأ السباب، وأخذ يضرب بقدمه الأرضَ في غيظ شديد، وكرّر ذلك حتى غشي عليه، ثمّ سقط على الأرض لا يدرك من حواليه شيئًا. والوزراء وكبار حاشيته الذين كانوا أقربَ إلى مكانه، ظنوا في البداية أنه جلسَ على العشب يلعب مع أطفالهم الأبرياء، ولكن في النهاية حفّزهم الشك وتقدّموا نحو المكان ووجدوا الخليفة وحيدًا، فصرخوا مذعورين:

- أطفالنا! أين أطفالنا؟

فاستعادَ الواثق وعيَه ورباطة جأشه وقال كاذبًا:

- ربما تظنون أنني مسئولٌ عن ذلك. ولكن ما حدث أنّ أطفالكم أثناء لعبهم سقطوا في الهوّة التي كانت هنا، وكنت سأتعرّض لمصيرهم لولا أنقذني اندفاعكم المفاجئ.

عندَ سماع هذه الكلمات، صرخ آباءُ الأولاد الخمسين بشدة، والأمهات كررنَ صرخاتهن، بينما بقية الناس أخذوا يتهامسونَ فيما بينهم ويرددون ما قيل.

قالوا «خدعنا الخليفة» وانتشرَ الخبرُ بسرعة، «لعب هذه الخدعة لإرضاء الهندي الملعون. دعونا نعاقبه على خيانته. دعونا ننتقم. دعونا ننتقم لدم الأبرياء. دعونا نلقي بهذا الخليفة القاسي في الهوة القريبة، ولن يُذكر اسمه مرة أخرى».

وعندما سمعتْ قراطيس هذا الكلام، انطلقت يملؤها الذعر، إلى موركاناباد، وقالت:

- يا أيها الوزير، فقدتَ ابنيك الجميلين، ويجب أن تكون أكثرَ الآباء حزنًا، ولكنك ذو أخلاق عالية، فأنقذ سيدك.

قال الوزير في حزن شديد:

- سأواجِه المخاطرَ حتى أنقذه مما هوَ فيه، ولكن بعد ذلك لن أكونَ في القصر بعد اليوم.

ونادى على بابابالوك وزملائه:

- يا بابابالوك، خذ مَن معك من الخصيان مَن شئت وانطلق، فرِّق جمعَ هؤلاء الغوغاء وحاول إنقاذ الخليفة.

انطلقَ بابابالوك ومن معه لتنفيذ تعليمات الوزير، ولسانُ حالهم يقول الحمدُ لله أننا لا نستطيع الإنجاب حتى لا نلقى مصيرَ هؤلاء من الألم الذي لحقَ بهم، واستطاعوا بالفعل إنقاذَه إنفاذًا لتعليمات الوزير. وهكذا أحس الوزير أنه أدّى ما عليه، والآن حان وقتُ التقاعد ليرثي حاله بمفرده.

بمجرّد أن دخل الخليفة إلى قصره، أمرت قراطيس بإغلاق الأبواب، ولكن بما أن الفوضى لا تزال شديدة، ويسمع ضجيجٌ قادم من كل مكان، قالت لابنها:

- سواء كانت الجماهير على حقٍّ أم لا، يجب الحرص على سلامتك؛ دعنا نذهب إلى غرفتك الخاصة، ومن هناك عبر الممرّ السفلي، والذي لا يعرفه أحدٌ سوانا؛ نذهب إلى برجك، وسيساعدنا الصم الذين لا يتركون المكانَ أبدًا. قد نكون قادرين على الدفاع عن أنفسنا بعض الشيء. وسيظن بابابالوك بأننا مازلنا في القصر، سوف يحرس مداخله لينجو بنفسه، وسنجد قريبًا الحلّ الأفضل لهذه المشكلة من دون نصائح ذلك المهمل موركاناباد.

ودونَ أن يبدي أيّ ردةِ فعل، قبلَ الواثق اقتراحَ والدته وكرّر وهو يسير:

- أيها الشرير المنحط! أين أنت؟ ألم تبتلغ هؤلاء الأطفال الأبرياء بعد؟ أين سيوفك، مفتاحُك الذهبي، تمائمُك؟

بعدما استقرّا في البرج، قصّ الخليفة على والدته ما حدثَ عند الحافة، والغريب أنها لم تتأثر أبدًا بما قاله نحو الأطفال، وإنما ما شدّ انتباهها فعلًا وعودُ الهندي. هذه المرأة كانت قاسيةَ القلب ولا تحمل في قلبها إلا الضغائن والحقد. قالت:

- لا بدَّ أنَّ هذا الهندي دمويٌّ إلى حدٍّ كبير، لكن هذه عادة عظماء السحرة، وما وعد به حقيقة لا يقدر بالثمن البخس الذي دفعته. ثم إنك لم تستوفِ كلَّ شروطه بعد، لذا توقف عن لعنه. أليس من المطلوب أن يكون هناك تضحيةٌ للجن السفليّين؟ وَأليس علينا أن نكون مستعدّين لتقديمها بمجرد تهدئة الاضطرابات الحالية؟ هذه المهمة سأتولّاها بنفسي، ولا شك في نجاحي من خلال استخدام كنوزك، التي يمكن استنفاذها من دون خوف بما أنَّ هناك الكثير من الكنوز الأخرى كما وعدك الهندي.

بعدَ ذلك، عادتِ الأميرة، التي تمتلك مهارةً عالية في فنّ الإقناع، عبرَ الممر السفلي مباشرةً، وقدّمت نفسها للجماهير من نافذة القصر، وبدأت في إلقاء خطبة بكلّ اللباقة التي تتمتع بها، بينما كان بابابالوك ينثر المالَ من كلتا يديه على الحشد الموجود أمام القصر، ونجحت هذه الأفعال بإقناع الحشد وتهدئته، وعادوا جميعًا إلى منازلهم وعادت قراطيس إلى البرج.

عندَ الفجر، صعدت قراطيس والخليفةُ إلى قمة البرج، حيث مكثوا لبعض الوقت،

كان الطقس ملبّدًا بالغيوم وممطرًا، والظلام حالك. هذه الكآبة التي تدور حولهم تتوافق مع تصرفاتهم الخبيثة، ولكن عندما بدأت الشمس في الظهور من بين ثنايا الغيوم أمروا بإقامة خيمة كحاجز ضدّ اقتحام أشعة الشمس. أراد الخليفة أن يرتاح ويصفو ذهنه على أملٍ أن تأتيه رؤيا يبصر من خلالها ما سيحدث في قادم الأيام. بينما نزلت قراطيس التي لا تعرف الكلل، يتبعُها مجموعة من الصمّ لإعداد ما اعتبرته مناسبًا للقربان التي اعتزمت دفعَه.

من خلال سلالم سريّة تعرفها هي وابنها فقط، توجّهت إلى الأماكن السرية التي تُخزن فيها المومياوات التي نُقلت من مقابرِ الفراعنة القدماء، ومن هناك أمرث بأخذ العديد منها. ثمّ توجهت إلى غرفة يحرسها خمسون أمة سوداء من الإناث، لا يستطعن التحدثَ، ومصابات بالعَوَر في العين اليمنى، وفيها تحتفظ قراطيس بزيتِ الثعابين السامّة الأكثر سميّة في العالم، وقرون وحيد القرن، وأخشاب ذات رائحة غامضة ونافذة أحضروها من جزر في الهند، وآلافِ النوادر المرعبة الأخرى. جمعت قراطيس هذه المجموعة لهدفٍ مُشابه لما يحدث لها ولابنها الآن، وبناءً على اعتقادها أنها قد تتمتّع يومًا ما ببعض التواصل مع القوى الجحيمية التي كانت مولعة بها دومًا، والتي ليست غريبةً عن ذوقها الخاص.

لتعرفَ ما تحتاجه بالضبط من الكنوز التي أمامها ظلّت الأميرةُ بصحبة إمائها، الذين حدّقوا بطريقة غريبة من العين الوحيدة التي لديهم، ونظروا بفضول إلى الجماجم والهياكل العظمية التي أحضرتها قراطيس من خزائنها التي لم تأمن أن تعطي مفاتحها لأحد قط. كان الإماء يصنعنَ التواءات غريبةً بأجسادهن، ويتلفّظن بلغة مُخيفة، ولكنها كانت مسليةً جدًّا للأميرة في البداية، حتى أذهلتها ثرثرتُهنّ عما جاءت له، واختنقت من قوة زفيرهنّ، واضطرّت إلى مغادرة الغرفة سريعًا، بعد أن أخذت ما أرادت من كنوز.

في أثناء انشغال قراطيس، كان الخليفة - بدلًا من الرؤى التي كان يتوقع أن يراها - يتضوّر جوعًا، وكان مستاءً إلى حدٍّ كبير من الإماء اللائي كان قد طلبَ منهنّ الطعام بلهفة، وشاهدهنّ لا يهتمِمن بطلبه، وقد نسيَ أنهنّ لا يسمعن، فبدأ يضربهنّ

ويقرصهن ويدفعهن، حتى حضرث قراطيس لإنهاء مشهدٍ مشينٍ كهذا المشهد، مما أسعد المسكيناتِ اللاتي تربّين على يديها؛ فهنّ يفهمنَ جميعَ إشاراتها ويعبّرنَ عن أفكارهن إليها بنفس الطريقة في المقابل:

- يا بني، ظننت أنّ مجموعة من الخفافيش خرجوا لتوّهم من كهف مظلم فأصدروا هذا الضجيج، وخرجت لأرى إمائي الذين لا يسمعنَ يصرخنَ من أفعالك. أنت لا تستحقُّ المفاجأة التي جلبتها لك إذًا.

صاحَ الخليفة:

- أعطِني ما جلبتِ على الفور. أنا على وشك الموت جوعًا.

أجابتْ والدته:

- يجب أن يكون لديك معدةٌ قوية لتقدرَ على هضم ما كنت أعدُّه.

ردَّ الخليفة:

- أسرعي، ولكن يا إلهي! ما هذا الذي تنوين فعله؟

- اهدأ قليلًا، لا تكنْ فضوليًا بهذا الشكل، بل ساعدني في ترتيب كلِّ شيء بشكل صحيح، وسترى أن ما ترفضُه بعلامات الاشمئزاز التي تظهر على وجهك الآن سيكمل سعادتَك قريبًا. لنحضر الأشياء لتضحية هذه الليلة، ولا تفكر في الأكل حتى يتمَّ ذلك؛ ألست تعلم أنّ جميع الطقوس المهيبة يسبقها امتناع صارم عن الملذات؟

تقبّل الخليفة كلامَ والدته على مضض، لكنّ الحزن كان يعصر قلبه. لكنه لم يقدر على الاعتراض وجلس يراقب ما تفعلُه والدته، بينما تقدّمت هي فيما تفعل. رتّبت زجاجات زيت الثعابين والمومياوات والعظام على الدرابزين الخارجي للبرج، وبدأت الكومةُ في الارتفاع، وخلال ثلاثِ ساعات ارتفعت بنحو ثلاثة أذرع. وفي النهاية، حلَّ الظلام.

خلعت ثيابها وصفّقت بيديها بدافع من النّشوة التي انبثقت من داخلها، وأشعلتِ النيرانَ بكل قوتها. تبعتها إماؤها وفعلنَ مثل ما فعلت.

أما الواثق الذي ضعفَ بسبب الجوع والانتظار، فلم يستطع أن يتحمّل وسقط مغشيًا عليه. كانت الشرارات أشعلت الخشبَ الجاف، وانفجر زيتُ الثعابين السامة فشكّل آلاف من خيوط اللهب الأزرق، وبدأت المومياوات في الانصهار، وانطلق بخارٌ كثيف بنيّ اللون، وبدأت قرونُ وحيد القرن في التحلل، مما أدّى إلى انتشار رائحة قوية. استعادَ الخليفة وعيَه إثرها وهو يتطلع بعينين جامحتين إلى المشهد المشتعل حوله. اندفع الزيت بشكل غزير إلى النار عن طريق الإماء اللواتي كنّ يزوّدنه دون انقطاع، انضممنَ بأصواتهنّ إلى صوت الأميرة بتهليل غير مريح للنفس، وأصبح الحريق عنيفًا جدًا وانعكست صورةُ النار على الرخام بشكل مذهل، حتى إن الخليفة أصبح غير قادر على تحمُّل الحرارة واللمعان اللذين كادا أن يودِيان ببصره، ونجحَ في الفرار من المكان وصعد على الراية في أعلى البرج.

في هذه الأثناء، استيقظ سكانُ سامراء مذعورين من النور الذي برقَ فوق المدينة، وخرجوا بسرعة إلى أسطح منازلهم، حيث رأوا البرجَ تشتعل فيه النار، واندفعوا نصفَ عراة نحو الساحة. حركهم حبُّهم لحاكمهم، وخشية أنه قد يكون في خطرٍ يقارب الهلاكَ بداخل البرج. فكانت كلُّ أفكارهم تنشغل بوسائل إنقاذه.

عندما رأى موركاناباد النارَ صاح يطلب الماءَ كباقي الشعب لإطفائه، أما بابابالوك الذي كان من بينهم أكثرَ من تعود على مثلِ هذه الروائح السحرية الغريبة، واستنتجَ بسرعة أن قراطيس كانت مشغولةً بتسلية مفضّلة لها، وحثهم على عدم الذعر مما يحدث. لكنهم عاملوه كجبانٍ رعديد بل لم يتردّدوا في تسميته خائنًا بلا مبدأ. كانت الجِمال والجمالُ ذات السَّنَمين تتقدَّم بالماء، لكن لم يكن أحدٌ يعرف طريقة الدخول إلى البرج.

بينما كانتِ الجماهير مصرَّة على اقتحام الأبواب، دفعتهم رياحٌ عنيفة بكميات هائلة من اللهب، مما أجبرهم في البدايةِ على الابتعاد، لكن بعد ذلك اشتعلَ حماسهم مرّة أخرى. في الوقت نفسه، زادت رائحةُ القرون والمومياوات، ممّا أدّى إلى تراجع معظم الحشد إلى الخلف في حالة اختناق. تعجّب الذين استمروا على قدميهم من سبب الرائحة، وحذّروا بعضهم البعض بضرورة الانسحاب. تأثر موركاناباد أكثرَ من

الباقين وأمسك أنفه بيدٍ واحدة من هول الرائحة، لكنه أصرّ باليد الأخرى على تحطيم الأبواب والدخول. مائة وأربعون من الأقوياء والأكثر إصرارًا أنجزوا في النهاية هدفهم. بعد أن حصلوا على سلم، وبفضلِ جهودهم القوية تمكنوا من الوصول إلى ارتفاع كبير في عدة دقائق.

أشارَ الصمُّ لقراطيس أن ثمة ما يحدثُ على سلالم البرج، فانتبهت لما يحدث، وتقدّمت نحو السلم ونزلت بضعَ خطوات، وسمعت أصواتًا تنادي من الأسفل:

- نحن آتونَ بالماء لإطفاء النار.

فكرثَ قليلًا ثمَّ عادت لقمّة البرج مرةً أخرى وأمرت ابنها بتأجيل التضحية لبضع دقائق، وقالت:

- سنتمكنُ قريبًا من جعلها أكثر إرضاءً؛ بعض أغبياء رعاياك متصورون بلا شك أننا نحترق. قاموا بجرأة بكسرِ تلك الأبواب التي كانت حتى الآن محرّمة عليهم من أجل جلب الماء. إنهم لطفاء جدًا يجب أن نعترف بذلك، فقد نسوا سريعًا الظلمَ الذي ارتكبته بحقّهم، ولكن هذا ليس أمرًا مهمًا. دعنا نقدمهم للهندي؛ دغهم يصعدون، والبُكم الذين لا ينقصهم القوةُ ولا الخبرة سيقضون عليهم في لحظة واحدة وهم مرهقون من التعب.

أجابَ الخليفة:

- ليكنْ ما أردت، شرط أن ننهي هذا، وأتناول طعامي.

هؤلاء الرعايا الذين صعدوا أحد عشر ألف درجةٍ لمساعدة ملكهم ونجدته، كانوا متأسّفين لأنهم قد سكبوا بعضَ الماء الذي حملوه في الطريق. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى وصلوا إلى القمة وغَمرهم فجأة لهيبُ النيران ورائحة المومياوات. كانت لحظاتٍ مؤسفة؛ فلم يروا إلا الابتسامةَ اللطيفة التي رسمها البكمُ والإماء على وجوههم وهم يضعون الحبلَ على أعناقهم؛ لم يحدث من قبل أن نُفذت مراسمُ خنق بسهولة كهذه، سقطوا جميعًا دون أدنى مقاومة أو صراع، بحيث وجد الواثق نفسَه في غضون بضع دقائق محاطًا بجثثِ أكثر رعاياه إخلاصًا، وألقوا بهم جميعًا على

قمة كومة النار.

أدركت قراطيس - التي كانت في قمة نشاطها الذهني - أنها تمتلك الآن جثثًا كافية لإكمال التضحية، وأمرت برمي سلاسل كبيرةٍ عبر السلم، ووضع حواجز عند الأبواب الحديدية لكيلا يتمكن أحدٌ آخر من الصعود.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى نُفّذت هذه الأوامر، حيث اهتزَّ البرج واختفت الجثث في النيران التي تحوَّلت فورًا من اللون القرمزي الداكن إلى لون ورديّ مشرق، وتصاعد بخار محيط بأريج رائع، ورنَّت أجراس الأعمدة الرخامية بأصوات متناغمة، وانبعثت رائحةٌ نفّاذة من القرون المنصهرة. وكانت قراطيس في حالة من النشوة، حين توقعت نجاح مشروعها، بينما انسحب البكم والإماءُ إلى غرفهم وهم يتذمرون بسبب الروائح العطرية التي تسببت في آلام في بطنهم.

وما إن رحلوا حتى رأى الخليفة - بدلًا من الكومة والقرون والمومياوات والرماد - طاولةً مغطاة بأروع أنواع الطعام، وشعرَ بدرجة من المتعة لم يستطعِ التعبير عنها؛ أباريق النبيذ ومزهريات الشربات الرائعة تطفو على كومة ثلج. دون أي ترددٍ وضع يديه بالفعل على خروف محشوٍّ بالفستق، بينما سحبت قراطيس من جرَّة مزركشة مخطوطة بدا أنها لا نهاية لها، والتي غابت عن انتباه الخليفة بسبب انشغاله في إرضاء شهيته. تركها تطالعُ المخطوطة دون أن يقاطعها، وبعد أن انتهث قالت له بلهجة واثقة:

- ضع حدًّا لشرهك، واسمعِ الوعود الرائعة التي يتفضَّل الهندي بها عليك.

ثمَّ قرأت: «أيها الواثق، الذي أحببته، لقد تجاوزتَ توقعاتي، أنفاسي تمتعت بعبق مومياواتك وقرونك، وأكثر من ذلك بأرواحٍ كانت على الكومة. عندما يكتمل قمرُ الشهر اجعلْ أصوات فرقة الموسيقيين لديك وطبولك تُسمع، انطلق من قصرك محاطًا بكل مظاهر الجلالة؛ عبيدك الأوفياء، وزوجاتك الأعزاء، وعرباتك الباهرة، وإبلك الرمادية الثمينة، وانطلق في طريقك إلى إصطخر(11). هناك أنتظرُ قدومك. إنها منطقة العجائب. هناك ستحصل على تاج جيان بن جيان(12)، والتمائم الخاصَّة

بسليمان، وكنوز سلاطين ما قبل الزمان. هناك ستُسعد بجميع أنواع اللذة. ولكنِ احذر أن تدخل أيّ مسكن في طريقك، وإلا ستحلُّ عليك آثار غضبي».

لم يسبق للخليفة - على الرغم من ترفه المعتاد - أن تناول العشاء بمثل هذا القدر من الرضا من قبل، أعطى المجالَ الكامل ليفرح لهذه البشرى الذهبية، وشرع في الشرب من جديد. فشلت قراطيس في مقاومة الخمر رغم أنها لم تكن تحبّه. لكن هذا الاحتفال الصاخب والوعود السخية دفعتها للشرب، وفي سكرتهم تلفّظوا بألفاظ الكفر، فشربوا الخمر في صحّة محمد، وأطلقوا العنان لسخريتهم، فسخروا من حمار بلعام(13)، وكلب أهل الكهف، والحيوانات الأخرى التي دخلت جنةَ محمد. وبهذه الفكاهة المفعمَة لديهم، نزلوا السلالم الأحد عشر ألفًا، ممتّعين أنفسَهم أثناء النزول بالنظر إلى الوجوه القَلقة التي رأوها في الساحة من خلال فتحات البرج، ووصلوا في النهاية إلى الغرف الملكية عن طريق الممر السفلي.

كان بابابالوك يتجوَّل هنا وهناك، ويصدر توجيهاتِه بكبرياء للخصيان الذين كانوا مشغولينَ بشكل واضح. وبمجرد أن رأى الخليفة ووالدتَه حتى صاح:

- لم يكن لديّ أدنى شك أنكما ستنجوان من لهيب النار.

صاحت قراطيس:

- ما أهمية ما كنت تشكُّ فيه أو تؤمن به، اذهب بسرعة قل لموركاناباد إننا نحتاجه فورًا، واحترس أن تتوقف في الطريق لتقديم تأملاتك البلهاء لأحد.

لم يتأخز موركاناباد في طاعة الاستدعاء، واستقبلَه الواثق ووالدتُه بجديّة كبيرة. أخبروه بمظهرٍ هادئ وتعاطف واضح بأنّ النيران في القمة من البرج قد انطفأت، لكنها أنهث حياةَ الأشخاص الشجعان الذين حاولوا مساعدتهم.

قال موركاناباد بتنهيدة:

- مزيدٌ من البلاء! آهٍ يا أمير المؤمنين، إنّ محمدًا قد غضب علينا، ينبغي عليك أن تسترضيه.

أجاب الخليفة بابتسامةٍ لا تبشّر بخير:

- سوف نسترضيه فيما بعد. سيتوفّر لك وقتٌ كافٍ للدعاء في غيابي؛ لأن هذا البلد الآن هو لعنة تدمّر صحّتي. أشعرُ بالاشمئزاز من جبل النوافير الأربعة، وعقدتُ العزم على الذهاب والشرب من نهر ركن آباد(14)؛ أتوقُ إلى إنعاش نفسي في الوديان المبهجة الذي يسقيها. سأترك لك أمرَ الحكم ولكن بنصيحة والدتي، ولتحرض على توفير كلّ ما قد تتطلبه تجاربها؛ لأنك تعلم جيدًا أنّ برجنا يزخر بالمواد اللازمة والتي تعزز تقدمَ العلوم.

لم يناسبِ البرج ذوقَ موركاناباد على الإطلاق. لقد أُنفقت ثرواتٌ هائلة على هذا البرج، ولم يرَ هناك سوى الإماء السّود والبكم، وموادّ سامة مقيتة. ولم يكن يعرف حقًّا ما يجب أن يفعله بشأن قراطيس، التي كانت تستطيع أن تتخذَ ألوانًا متعددة مثل الحرباء؛ فلقد دفعت خطاباتها البليغة الملعونة المسلمَ الفقير إلى أقصى حدود صبرِه، ولكنه اعتبر أنه إذا كان لديها قليلٌ من الصفات الجيدة فإنّ ابنها لديه صفات جيدة أقلّ منها بكثير، وأن المقارنة في المجمل ستكون لصالحها. وبعدَ أن تواسَى بهذا التفكير ذهبَ بروح معنوية جيدة لتهدئة الجماهير والقيام بالترتيبات المناسبة لرحلة سيده.

قررَ الواثق - ولكي يسترضي أرواحَ القصر السفلي - أن تكون بعثته برّاقة بشكلٍ غير عادي. بهذه النية حجز ممتلكاتِ رعاياه في كل مكانٍ في سامراء، في حين قامت والدته بسلبِ الأحجار الكريمة والمجوهرات من النساء اللائي جئنَ لزيارتها. جمعت كلّ محترفات الخياطة والتطريز في سامراء وغيرها من المدن في نطاق ستين فرسخًا(15) لإعداد خيامٍ ومفارش وأرائك ومظلاتٍ وكراسي متحركة لمواكب الملك. لم يتبقَّ في مدينة ماتشيليباتنام(16) قطعة من القطن، واشتروا الكثيرَ من المصاغ لتزيين بابابالوك والخصيان الآخرين، حتى لم يتبقَّ أيُّ ذرة قماش في بابل بأكملها.

أثناءَ هذه التحضيرات، لم تفقد قراطيس هدفَها العظيم، والذي كان الحصول على رضا قوى الظلام. قامت بتنظيم حفلات خاصّة لأجمل وأرقى السيدات في المدينة،

ولكن في خضمّ بهجتهم نجحت في إدخال الثعابين بينهنّ وكسرت أواني العقارب تحتَ طاولاتهن، لدغاتُها كانت مؤلمة. ولولا أنها أرادت ملء الوقت وفقط لكانت تركتهنّ يعانين، ولكنها بين الحين والآخر استمتعت بعلاج جروحهنّ باستخدام علاج قوي اخترعته بنفسها.

لم يكنِ الواثق نشيطًا مثل والدته، بل كرّس وقتَه لإشباع حواسه فقط، في القصور التي كانت مكرسة لكل حاسّة على حدة. لم يعد يهتمّ بالديوان أو المسجد. رضيَ نصفُ سكان سامراء بما يفعل، في حين أنّ النصف الآخر كان يشعر بالأسى من تقدُّم الفساد وكثرة الأعباء.

وفي خضمّ هذه الأحداث، عادتِ البعثة التي أُرسلت في موسم العبادة إلى مكة. وكانت تتألف من العديد من الفقهاء الأشراف، الذين أدّوا واجبهم وأحضروا أحد تلك المكانس الثمينة التي تستخدم لتنظيف الكعبة المشرّفة، هديةً تليق بأعظمِ الحكام على وجه الأرض. وفي هذه اللحظة، كان الخليفة مشغولًا في إحدى الغرف التي لم تكن ملائمةً على الإطلاق لاستقبال البعثات، على الرغم من تزيينها ببعض الزينة، ليس فقط لجعلها ذات شكلٍ جيد، ولكن أيضًا لأنه كان يلجأ إليها بشكل متكرر ويقضي فيها وقتًا طويلًا. وأثناء وجوده في هذا الملاذ، سمع صوتَ بابابالوك ينادي من بين الباب والستائر التي تعلوه يقول:

Telegram:@mbooks90

- حضرَ إلى جنابكم العلامةُ محمد بن إدريس الشافعي(17) والمحدّثون الفضلاء، الذين جلبوا المكنسة من مكة، وبدموع الفرح يرجونَ أن يقدّموها إلى جلالتكم شخصيًا.

قال الواثق وهو ما يزال مشغولًا ولم يفرّغ من تناول النبيذ بعد:

- ليأتوا بالمكنسة إلى هنا؛ فقد تكون ذاتَ فائدة.

قال بابابالوك بصوتٍ مرتفع وتبدو عليه الدهشة:

- لكن كيف يا مولاي! إنك...

قاطعه الواثق:

- أطغ فإنها إرادتي. اذهب فورًا، فهنا سأستقبلُ هؤلاء الناس الطيبين الذين ملأوك بهذه الفرحة.

انصرف باباباالوك الذي لم يتردذ في التذمر، وأمرَ الرجال المسنّين الكرام بمرافقته. انتشر الحماش بين هؤلاء الرجال الموقَّرين. على الرغم من تعبهم من طول رحلتهم تبعوا باباباالوك بحالةِ يقظة تقترب من المعجزة، وشعروا بالفخر الشديد يجتاحهم وهُم يسيرون عبرَ الأروقة الرائعة لأنَّ الخليفة لم يستقبلهم كسفراء عاديين في قاعة الاستقبال. ووصلوا إلى داخل الحرملك حيث رأوا من خلال الستائر الفارسية عيونًا كبيرة وناعمة، سوداء وزرقاء، تتحرك كالبرق، وبمشاعر الاحترام والدهشة والقداسة التي تجتاحهم تقدَّموا في طابور نحو الممرات الصغيرة التي يبدو كأنها لا تنتهي، إلا أنَّها ذهبت بهِم في النهاية إلى الغرفة حيث ينتظرهم الخليفة.

قال الشافعي بصوت هامسٍ لصاحبه:

- هل أميرُ المؤمن مريض؟

أجابَه صاحبه:

- أعتقد أنه في ركن الصلاة.

سمعَ الواثق حوارَهما وصاح:

- ما الذي يهمُّكما بشأني؟ تقدَّموا فورًا من دون تأخير.

تقدَّموا، وكاد باباباالوك أن ينهارَ من الارتباك، في حين أنَّ الخليفة - دون أن يُظهر نفسه - مدَّ يده من وراء الستارة التي عُلقت أمام الباب، وطلبَ منهم المكنسة. فبعد أن حيّوه قدرَ الإمكان في الممر الضيق، قام الكريم الشافعي الموقَّر، واستخرج المكنسةَ من الأوشحة المطرَّزة والمعطرة التي لفّ المكنسة بها لحمايتها من نظرات عيون العامة، وتقدَّم بشيء من الرسمية نحو المصلى المفترض، ولكن الذي حدث كان غريبًا ومفزعًا. فقد انفجر الواثق في ضحكة شريرة، ونزع المكنسةَ من يد

الشافعي المرتجفة، وبدأ بفرك بيوت العناكب المعلقة في السقف بجدية حتى لا تبقى واحدة. وقد غمرتِ الدهشة القوية الرجالَ العجائز حتى لم يتمكنوا من رفع أذقانهم من الأرض؛ فبسبب ترك الواثق الستارة نصفَ مسحوبة بلا اهتمام، شاهدوا المشهدَ بأكمله. انهمرت دموعُهم على الأرضية الرخامية، وكاد أن يغشى عليهم بسبب الإحراج والإرهاق. بينما الخليفة - وهو يلقي نفسَه إلى الوراء على مقعده - صاح وصفَّق بيديه بلا رحمة ووجَّه كلامه إلى بابابالوك:

- يا أيها الأسود. اذهب وقدم لهذه النفوس الفقيرة التَّقية نبيذي الشيرازي الجيد؛ وبما أنهم يستطيعون أن يفتخروا بأنهم رأوا من قصري أكثرَ من أيِّ شخص آخر، فليزوروا أيضًا بلاطَ الحكم، واذهب بهم من الدرج الخلفي الذي يؤدي إلى اسطبلاتي لكي يروها.

وبعدَ قوله ذلك، ألقى المكنسة في وجوههم، وذهبَ للاستمتاع بالضحك مع نسائه.

بذلَ بابابالوك كلَّ جهده لمواساة الفقهاء، لكن المرضى والأكثر ضعفًا من بينهم لم يتحملوا هذا الجفاءَ وسلَّموا أرواحَهم لإلههم الرحيم، ونُقلَ الباقون إلى أسرَّة المرض، وبسبب الأسى والعار ظلُّوا في أسرَّتهم ولم ينهضوا أبدًا.

في الليلة التالية، صعدَ الواثق بصحبة والدته إلى البرج للتحقق ممَّا إذا كان كل شيء جاهزًا لرحلته؛ فقد كان يؤمن بشدَّة بتأثير النجوم. ظهرتِ النجوم في أوج تألقها، ولكي يستمتعَ الواثق برؤية مثيرة للإعجاب بهذا القدر تناول العشاءَ بسرور على السطح، وتخيَّل أنه يسمع خلالَ وجبته أصواتَ ضحك عالية تتردد في السماء، بطريقة تلهمُه باليقين التام.

كان يُسمع في القصر جلبةٌ ووقعُ أقدام متحركة، وقد بقيتِ الأنوار مشتعلةً طوال الليل. صوت الأدوات والحرفيين وهم ينهون عملهم، وأصوات النساء وهم يغنّون أثناء تطريزهم؛ كلّ هذا ساهم في الهدوء النفسي وسعادة قلب الواثق، الذي تخيَّل نفسَه يتَّجه بانتصار إلى جلوسه على عرش سليمان.

لم يكنِ الشعب أقلَّ رضًا منه؛ فقد ساعد الجميع في تسريع اللحظة التي ستنقذُهم

من تقلبات سيدهم المتهورة والمبالَغ فيها.

في اليوم السابق لمغادرة هذا الأمير المسحور، قضت قراطيس وقتها في تكرار مراسيم المخطوطة الغامضة له، التي حفظتها جيدًا في ذهنها، وفي توصيته بعدم دخول منزل أيّ شخص في الطريق. وقالت:

- تعلم جيدًا مدى شهوتك للأطباق الشهية والفتيات الصغيرات؛ فاسمح لي بأن أوصيك بأن تكتفي بخدمك القُدامى، الذين همُ الأفضل في العالم، ولا تنسَ أنه في نسائك المتجولات ثلاثة عشَر وجهًا جميلًا لم يكشف بابابالوك عنهم بعد. لديّ رغبة كبيرة في مراقبة تصرفاتك وزيارة القصر السفلي، الذي لا شك أنه يحتوي على كلّ ما يهم شخصين من مثلينا؛ فلا شيء أجمل من الاعتزال في الكهوف، فأنا أفضل الأجسادَ الميتة وكلَّ ما يشبه المومياء عن أمثالهم من الأحياء، وأنا واثقة أنك ستشاهد أروعَ ما في هذه الأنواع. لا تنسني بعد ذلك، ولكن في اللحظة التي تكون فيها بحوزتك الطلاسمُ التي ستفتح لك الممالك ومركز الأرض نفسها، لا تتردَّد في إرسال جنيّ تثق به ليأتي بي وبخزانتي، لأنَّ زيت الثعابين التي قمت بثنيها حتى ماتت سيكون هديةً جميلة للهندي، الذي لا يمكن أن يستطيع سوى أن يسحرَ بهذه الأطباق اللذيذة.

بالكاد انتهت قراطيس من هذا الخطاب حتى غابتِ الشمس وراء جبل النوافير الأربعة، وظهر القمر منيرًا، وبما أنه كان في ذلك المساء في طوره الكامل ظهرَ بجَمال وحجم غير عادي في عيون النساء والخصيان والخدم، الذين كانوا جميعًا شَغوفين ببداية الرحلة. صدحتِ المدينة بأصوات الفرح وصوتِ البوق، وكانوا لا يرون سوى أعاجيب تتمايل فوقَ الخيام، وأشرطةٍ تلمع في ضوء القمر الساحر؛ فالساحة الواسعة تشبه حديقةً ضخمة متعددة الألوان بأجمل زهور السوسن التي لا مثيلَ لها في الشرق كله.

وبهيئته الفخمة وبالثياب التي لا يرتديها إلا في المناسبات الرسمية المهمة، وبدعم من وزيره وبابابالوك؛ نزلَ الخليفة الدرَج الكبير للبرج في مشهدٍ يشاهده جميعُ شعبه. لم يستطع أن يمتنعَ عن التوقف بين الفينة والأخرى ليبدي إعجابَه بالمظهر

الرائع الذي يراه في كل مكان، في حين انحنتِ المجموعة بأكملها، حتى الجِمال مع أعبائها التي تحملها أمامه. لبعض الوقت سادَ هدوء عام، لم يتم تعكيرُه إلا بصرخات حادّة من بعض الخصيان في الخلف؛ حيث لاحظَ هؤلاء الخصيان اليقظون أن بعضَ هوادج النساء تتأرجَح بشكل كبير، واكتشفوا أن بعض الشجعان المغامرين تمكنوا من دخول الموكب، فسرعان ما قاموا بإخراج الجناة المتحمسين. ومع ذلك، لم ينتهك عظمة المشهد بهذه الحوادث. وفي غضون ذلك، قام الواثق بتحية القمر بطريقةٍ وثنية لم تعجبْ كلًّا من موركاناباد وعلماء الشريعة الآخرين، ولا الوزراء والأعيان في البلاط الذين اجتمعوا جميعًا للاستمتاع بآخر نظرة لسيدهم.

أخيرًا، أعلنتِ الأبواق والطبول من أعلى البرج بداية المغادرة. ورغم أن الآلات كانت متناغمة مع بعضها البعض، إلا إنَّ انسجامها زادَ بتوافق غريب؛ وذلك بسبب قراطيس التي كانت ترتلُ صلواتها الشريرة للهندي، في حين كانت الإماء والبكم يؤدّون دورهم الأساسي بهَمهمات ودون نطقِ كلمة. ظنَّ المسلمون المخلصون أنهم يسمعون طنينًا غامضًا لتلك الحشرات الليلية التي تنبئ بالشَّر، وحثّوا الواثق على أخذ الحيطة لنفسه.

وفي إشارة مُعطاة، نُشرت الرايةُ العظيمة للخلافة، ولمعَ عشرون ألف رمحٍ حولها، وصعد الخليفة وهو يخطو بخيلاء على القماش الذهبي الذي وضِع لقدميه إلى داخل الناقلة المحمولة، وسط رهبةٍ عامة اجتاحت عامةَ الشعب.

بدأتِ الرحلة بأقصى درجات التنظيم وبصمتٍ تام، حتى إنَّ الجراد كان يُسمع من الأشجار في السهول. وبينما انتشرتِ البهجة والمرح، قطع ستة أميال قبل الفجر، وكانت نجمةُ الصباح ما تزال تلمعُ في السماء عندما توقفت القافلةُ على ضفاف نهر دجلة، حيث نَصبوا مخيمًا للاستراحة لبقية اليوم.

الأيامُ الثلاثة التالية مضت بنفس الطريقة، لكن في اليوم الرابع، بدتِ السماء غاضبة، واندلعت البروقُ بومضات متكرّرة، وتبعَها دويُّ رعود مترددة، وتعلّقت الجواري المرتجفات بكل قوتهن بحراسهنَّ القبيحين. وكان الخليفة نفسه ميالًا إلى أخذ المأوى في بلدة غولتشيسار(18) الكبيرة، حيث خرج لاستقباله حاكمُها وقدم

له كلّ أنواع الملذات التي يمكن أن توفرّها المدينة. ولكن بعد ذلك عانى من المطر الذي بلّل حتى عظامه. وعلى الرغم من أنه بدأ يشعر بالندم على أنه ترك قصورَ الحواس، إلا إنه لم يفقدِ الأمل في نجاح مشروعه، وتعززت توقعاته المتفائلة بقراره؛ ووجه الجغرافيون لمرافقتِه، لكن الطقس كان مرعبًا لدرجة أنّ الجغرافيّين الأبرياء أظهروا مظهرًا مؤلمًا، ونظرًا لعدم وجود رحلات طويلة منذ زمنِ هارون الرشيد، كانت خرائطهم للبلدان المختلفة في حالة أسوأ منهم بكثير؛ لم يكن أحد يعرف إلى أين يتجه لأنّ الواثق - على الرغم من معرفته الجيدة بحركة السماء - لم يعد يعرفُ موقعه على الأرض. واشتمت رائحةُ الإرهاق والتعب من أثر الطريق في كلّ الجمع؛ لذا قرر عبورَ الجبال الصخرية واتباع إرشادات أحد الفلاحين من ساكني المنطقة، الذي تعهّد بأن يقوده في أربعة أيام إلى ركن آباد. لم تكن مناشداتهم بالبقاء ذات جدوى، فقد حسم أمرَه، وانطلقوا في طريقهم ليمرّوا بمقاطعة مليئة بالأغنام، والتي هربت بعيدًا في قطعان كبيرة من أمامهم. كان من الغريب أن يروا على هذه الجبال الصخرية رسومًا لجِمال مزينة بشكل مبهج، ومظلات من الذهب والحرير تلوحُ على قممها، والتي لم تغطّ إلا بالشوك الجاف ونباتات السرخس.

أطلقت الإناث والخصيان نحيبًا حادًّا عند رؤية المنحدرات الموجودة أسفلهم والمناظر القاتمة التي فتحت أمامهم في الهاويات الشاسعة للجبال. وقبل أن يصعدوا إلى صخرة عالية تحميهم من الريح، حلَّ الليل ونشبت عاصفة عاتية، حيث قطعت الخيام والأوشحة الموجودة على المظلات والهوادج، وعرَّضت النساء الأبرياء لهبوب الرياح الباردة واللائي لم يشعرنَ من قبل ببرودة مثل هذه البرودة القارصة.

زادتِ السحبُ الداكنة التي غطّت سماءَ الليل رعبُ هذه الليلة المأساوية، بحيث لم يكن يمكن سماعُ شيء بوضوح إلا نحيب الخدم ونواح النساء.

ولزيادة البلاء، انتشر ضجيجُ الوحوش المرعبة من بعيد، وسرعان ما اكتشفوا وهجَ العيون اللامعة في الغابة والتي كانوا يرونها بوضوح، ولا يمكن أن تكون إلا إلى الشياطين أو السباع فقط. هوجِم المرشدون الذين حاولوا بقدر استطاعتهم تحديدَ مسار الرحلة، وجزء من الحرس المتمركز في أماكن متقدمة، وقبل أن يتنبّهوا إلى

الخطر المحدق عمّت الفوضى المكان؛ توافدت جموعٌ من الذئاب والنمور والحيوانات آكلة اللحوم الأخرى، مستدرَجة بأصوات العواء التي تصدرُ من كل مكان، ومن كلّ اتجاه، وكان يمكن سماعُ صرير عظام الحيوانات من جميع الجهات، وكان هناك ضجيجٌ مرعب للأجنحة في الأعلى، حيث بدأت أيضًا النسورُ تنضم إلى الجمع.

وصلَ الرعب في النهاية إلى القوة الرئيسية التي تحيط بالخليفة ونسائه، على بُعد ميلين من المشهد. وكان الواثق استلقى بمتعةٍ في سريره الواسع على وسائد من الحرير، بجواره جاريتان صغيرتان ذاتَا بَشرةٍ أكثر بياضًا من السكر، وكان يتأمل في أحلامه كنوزَ سليمان. ولكنه استيقظ على صرخات نسائه بدهشة وفزع، وبدلًا من أن يرى الهندي مع مفتاحه الذهبي، رأى بابابالوك واقفًا ومشوَّشًا.

وصاحَ قائلًا:

- يا سيدي، لقد وصل البلاءُ إلى ذروته؛ فقد اجتاحتِ الوحوش البرية، التي لا تحترم جنابَك الكريم أكثرَ ما تحترم حمارًا ميتًا، قد حاصرتْ جِمالك وراكبيها. ثلاثون من أغنى الجِمال حمولة أصبحوا بالفعل فريسةً لهم، وكذلك الحلوانية والطهاة وموزّدو الطعام؛ وإن لم يحمنا نبيُّنا الكريم محمد سنأكلُ جميعًا وجبتنا الأخيرة.

عندَ ذكر فكرة تناول الطعام، فقدَ الخليفة جميع صبره. بدأ يصرخ وحتى كاد أن يضرب نفسَه من الغضب. ازدادت الشائعات في كلِّ مكان، وبابابالوك الذي لم يجد أيّ فائدة من مناقشة سيده، سدَّ كلا أذنيه عند سماع ضجيج النساء، وصاح بصوت عالٍ:

- هلمّوا بنا يا سيداتي وإخوتي، كلُّ الأيدي معًا للعمل، أشعلوا النيران، لن يقال أبدًا إنَّ أمير المؤمنين كان طعامًا فاخرًا لهذه الوحوش الغادرة.

على الرغم من وجود عدد كافٍ من الجميلات متقلبات المزاج والمتمردات، إلا أنهن كانوا مطيعاتٍ تمامًا في هذه الحالة. ظهرتِ النيران في لحظةٍ في جميع الخيام، وأضيئت عشرةُ آلاف شعلة في آنٍ واحد. أمسك الخليفة نفسه بشعلةٍ كبيرة من الشمع، وتبعَه الجميع. ومن خلال إشعال أطراف الحبال المغمورة بالزيت والمثبتة

على أعمدة، انتشرَ لهيبٌ رائع. غطى الصخور ببريق كالشمس، وتطايرت شرارات النيران التي نقلتها الريح إلى العشب الجاف بكثرة. فلوحظَ زحفُ الثعابين من مخابئها، وسُمع صوت فحيحها، بينما صهلتِ الخيول وضربت الأرض ورفعت أنوفها في الهواء ولوَّحت بأجسادها وهي تقفز في خوف.

اشتعلتِ النيران في إحدى غابات الأرز التي كانت تحدُّ طريقهم، وأجبرتهم الفروعُ التي كانت تتدلى على الطريق - وامتدَّ لهبها إلى القماش والحبال الذي غطى خيم النساء - على القفز معرِّضين بذلك حياتهم للخطر. أطلق الواثق في هذا الوقت ألفَ سبَّة، واضطر بنفسه إلى لمسِ الأرض العارية بقدميه المقدستين.

لم يحدث من قبل مثلُ هذا الحادث للنساء. وكنَّ مليئات بالإذلال والخزي واليأس، ومع عدم تعودهن على المشي، سقطنَ في التراب. قالت واحدة: «هل يجب أن أسير على قدمي؟» وصاحت أخرى: «هل يجب أن أبلل قدمي؟»، وسألت الثالثة: «هل يجب أن ألوث ثوبي؟».

وصاح الجميع:

- يا بابابالوك اللعين، أيّ منبوذ من الجحيم أنت؟ لماذا جعلتنا نوقد نارًا؟ كان من الأفضل أن نأكل من قبل النمور بدلًا من أن نقعَ في هذا الوضع المخزي، سيغمرنا العارُ إلى الأبد! ليس هناك حمّال في الجيش أو مُعالج للجِمال إلا وقد رأى جزءًا من أجسادنا، والأسوأ من ذلك رؤية وجوهنا.

عندما سمع بقيةُ النساء ذلك الحديث قام الأكثر خجلًا بينهنَّ بخفض جباههنَّ نحو الأرض، في حين قام الأكثر جرأة من بينهنَّ بمحاولة الانقضاض على بابابالوك، ولكنه كان على علم بطبيعتهن؛ لذا - وبسبب ذكائه - لاذَ بالفرار هو ورفاقه، وقد ألقوا المشاعل من أيديهم.

كان النور خافتًا بعد إطفاء المشاعل، وكان الطقس حارًا من أثرِ اندلاع الحريق، ولكن يا للذل الذي شهده الخليفة وقد أضحى مثلَ أي إنسان عادي. وبينما بدا أنه لا حولَ له ولا قوة، احتضنته إحدى زوجاته الإثيوبيات القويات وحملته وجعلته يستند

على كتفها كأنه كيس تمر، وعندما أدركت أنّ النار تحاصرهم انطلقت بسرعة كبيرة، على الرغم من الوزن الثقيل الذي تحمله. تبعتها النساء الأخريات، وركض حراسهنّ وراءهن، وقد جاء راكبو الجِمال في الخلف بأسرع ما يسمح به حملهم الثقيل.

وصلوا قريبًا إلى المكان الذي بدأت فيه الحيوانات البرية المذبحة، ورغم العشاء الفاخر الذي تناولته الحيوانات المفترسة إلا إنّ بابابالوك استطاع الإمساك ببعضها من السمان، والتي أثقلها كثرة الطعام وقام بقتلها على الفور. وبعد أن بَعُد الموكب عن الحرارة اللاذعة في الغابة جمعَ القماش الممزق، ودُفنت بقايا الذئاب والنمور، وقتل العشرات من النسور التي كانت ثقيلة جدًا لدرجة أنها فقدت قدرتها على الطيران.

عدَّ بابابالوك الجِمالَ الباقية وأدخل النساءَ مرة أخرى لخيامهن، ثمَّ نصبَ خيمة الملك مرةً أخرى على أرض مستوية.

كان الواثق يستلقي على فراش مصنوعٍ من الريش وقد تعافى إلى حدٍّ ما من اهتزازات الإثيوبية وهي تحمله، التي بحسبِ إدراكه كانت المهرةَ الأكثر خشونة التي ركبها حتى الآن في كلِّ حياته. طالب بشيء ليأكله. ولكن للأسف فقدت تلك الكعكة اللذيذة التي خبزت في أفران من الفضَّة لفمه الملكي، وذلك الخبز الثَّري وحلوى العنبر وقوارير النبيذ القادمة من شيراز، والمزهريات المملوءة بالثلج، والعنب المقطوف من ضفاف دجلة. ولم يكن لدى بابابالوك سوى ذئبٍ محمَّص ونسور مشوية، وأعشاب عطرية محترقة، وبعض النباتات الفاسدة، وشوك مسلوق، ونباتات برية أخرى تتسبَّب في تقرح الحلق وجفاف اللسان. ولم يكن لديه شراب جيد، حيث لم يتمكن من استعادة أي شيء وهُم يرحلون من مكان الحريق سوى عددٍ قليل من قوارير البراندي السيئة، التي أخفاها الطباخون في نعالهم.

ظهرَ على وجه الواثق تعابير مُمتعضة بسبب هذا الطعام القذر القاسي الذي أمامه، وأجابه بابابالوك برفع كتفيه؛ ولسانُ حاله يقول لا يوجد غيرُ هذا الطعام يا سيدي. ومع ذلك، تناول الخليفةُ الطعام بشهية مقبولة ثمَّ سقط في نوم استمرَّ لست ساعات كاملة.

في الصباح، أشرقتِ الشمس من بين صخور الجبال البيضاء، وعلى الرغم من

الستائر التي تحيط به إلا إنّ الذباب استطاع أن يتسلّل من بين ثنايا الستائر ليعكر صفوَ نومه فاستيقظ وهو مرعوب، فقد قرصَه الذباب الأزرق في كل جسدِه، وانبعثت من أجنحتها رائحةٌ مخنقة. تحير الخليفةَ العليل في كيفية التصرف على الرغم من أن عقله لم يكن متوقفًا في البحث عن حلول، بينما كان بابابالوك يرقدُ يشخَر وسطَ سرب من تلك الحشرات، التي احتشدت مقتربةً من أنفه. العبيدُ الصغار الذين كاد يهلكهُم الجوع، سقطت مراوحُهم التي يهشون بها الذباب ويجلبون بها بعضَ الهواء للخليفة، وأطلقوا أصواتَهم المحتضرة من الإرهاق في عتابٍ مرير للخليفة الذي سمع الآن - ولأول مرة منذ بدء رحلته - لغة الحقيقة.

وهكذا تحفّز وعاد ليوجّه لعناتِه على الهندي، وعاد مرةً أخرى يعظم محمدًا قائلًا:

- أين أنا؟ ما هذه الصخور المرعبة؟ وما هذه الوديان المظلمة؟ هل وصلنا إلى الكهف المرعب؟ هل سيأتي طائرُ السيمُرغ (19) ليقتلع عينيّ انتقامًا منّي لتجرؤي على السير نحو هذه المغامرة الشريرة.

بعدَ أن قال هذا، صاح كالمجنون والتفتَ نحو مخرجٍ في جانب الخيمة. ولكن للأسف الأشياء التي ظهرت أمام ناظريه كانت سهلًا من الرمال السوداء التي يبدو أنها لا تنتهي، ومن الجهة الأخرى صخورٌ عمودية مغطاة بتلك الأشواك البغيضة التي جرحت لسانَه بشدّة وهو يتناولها. ظنَّ أنه رأى بين الأشواك بعضَ الزهور العملاقة، ولكنه كان مخطئًا؛ فقد كانت الأقمشةَ المتدلية والقطع المتعددة الألوان لمرافقيه. ونظرًا لوجود عدة شقوق في الصخور والتي يبدو أنها تفجّرت منها عيونُ الماء في السابق، أرهف الواثق سمعَه على أمل الاستماع إلى صوت مجرى مائي مخفيّ، لكنه لم يسمع سوى الهمساتِ المنخفضة لأناسه الذين كانوا يتذمّرون من رحلتهم ويشتكون من نقص الماء.

سألوا:

- لأيّ غرض جئنا إلى هنا؟ هل للخليفة برجٌ آخر يجب أن يبنيه؟ أم إنّ هذه مساكن العفاريت الذين تحبهم قراطيس؟

عندَ ذكر اسم قراطيس، تذكر الواثق الألواحَ التي تلقّاها من والدته، والتي أكدت له أنها محملةٌ بخصائص خارقة، ونصحته بالاستعانة بها عند الحاجة. وفيما كان يقوم بتفحُّص تلك الألواح سمع صيحات فرح وتصفيقًا عاليًا؛ سُحبت ستائرُ خيمته للخلف بسرعة، ورأى بابابالوك أمامَه، يليه طابورٌ من أفضل رفاقه، يقودان قزمين، كان كلٌّ منهما بطول ذراع واحد، يحملان بينهما سلةً كبيرة من البطيخ والبرتقال والرمان. قالوا في أدب شديد:

- نعيش على قمّة هذه الصخور في كوخ مصنوع من الخيزران؛ النسور تحسدنا على عشنا، ويزوّدنا ينبوع صغير بالماء ونكرر يوميًا صلواتٍ على نهج النبي. نحن نحبُّك يا أمير المؤمنين. سيدنا الأمير الصالح فخر الدين، يحبُّك أيضًا. إنه يُبجل في شخصِك ويقول إنك نائبُ النبي محمد على الأرض. على الرغم من صغر حجمِنا فإنه يثق بنا. إنه يعلم أنَّ قلوبنا كبيرة على الرغم من صغر أجسادنا. وضعنا هنا لنساعد أولئك الذين يضلّون طريقَهم في هذه الجبال المهلكة. الليلة الماضية، ونحن مشغولون في كوخنا بقراءة القرآن الكريم هبّت عاصفة مفاجئة وأطفأت أنوارَنا وهزّت مسكننا. ساد ظلامٌ عميق لفترة طويلة، لكننا سمعنا أصواتًا من بعد ظننّا أنها

Telegram:@mbooks90

تنبعث من أجراس قافلة تمرُّ فوق الصخور؛ امتلأت آذاننا بصرخات مؤلمة وزئير مرعبٍ وصوت طبول. امتلأنا بالرعب، ظننّا أن الدجّال حلَّ مع عفاريته المدمرة، وأرسلوا آفاتهم على الأرض. وفي وسط هذه الأفكار المؤلمة لاحظنا ألسنةً من اللهب الأحمر تلمع في الأفق، ووجدنا أنفسنا في غضون لحظات مغطّين بشظايا من تلك النيران، واندهشنا من هذا المنظر العجيب، أخذنا نقرأ في الكتاب الذي بوركَ من الروح الطيبة، ووقفنا مُستأنسين بنور النار التي تحيط بنا، نقرأ: «ليس لنا إلا الله؛ لا نتوكل إلا عليه؛ الجبل نفسُه قد يهتز، لكن قوة الله فقط التي لا يمكن أن تضعف» بعد أن تلفظنا بهذه الكلمات، شعرنا بالسلام، واستقرّت عقولنا في هدوء مقدس، ولما لزمنا الصمتَ سمعنا صوتًا في الأفق يقول: يا خدمي الأمناء، انزلوا إلى وادي فخر الدين السعيد، أخبروه أن فرصته حانت لروي عطش التائهين. إن أمير المؤمنين ضلَّ بين هذه الجبال، ويحتاج إلى مساعدتك». أطعنا المهمةَ السماوية بفرح، وسيدنا الذي امتلأ بروحانية الدين قطف هذا البطيخ والبرتقال والرمان بيديه، وهو يتبعنا مع مائة

جملٍ محمّلة بأنقى مياه ينابيعه، وقادم ليقبل طرفَ ثوبك المقدس، ويتوسّل إليك بأن تدخل مسكنه المتواضع، الذي يشبه الزمردة المرصّعة بالذهب.

انتهى الأقزام من خطابهم، وظلوا واقفين وأيديهم متقاطعة على صدورهم، وحافظوا على صمتهم في أدب شديد.

كان الواثق في منتصف هذا الخطاب العجيب ممسكًا بالسلة، وقبل أن يمضغَها كانت الفواكه تذوب في فمه. وكلما استمرَّ في تناولها شعرَ بالسلام وبالإيمان يزيدان في قلبه، وفي نفس الوقت الذي كان يرتلُ فيه صلواته طلب أن يُحضروا له القرآن الكريم وبعض السُكر.

كانت حالته على هذا النحو حتى جذبتِ الألواح التي ألقاها عند اقتراب الأقزام نظرَه مرة أخرى. أمسك بها، لكنه كاد أن يسقطها على الأرض عندما رأى عبارةً مكتوبة بحروف حمراء كبيرة، وكانت في كلمات قراطيس ما يكفي لجعله يرتعد:

«احذز من الأطباء العجائز ورسلهم الأقزام الذين لا يتجاوز طولُهم الذراع؛ لا يجب أن ينطلي عليك ورعُهم، وبدلًا من أكل بطيخهم اقتلهم. إذا كنت جاهلًا لدرجة أن تزورهم ستغلق بوابة القصر السفلي في وجهك بقوة تشطرك إلى شطرين؛ سيُخترق جسدك، وستتكاثر الخفافيش في بطنك».

صاحَ الخليفة بعد أن قرأ الألواح:

- إلى متى هذه التهديدات المتكررة؟ هل أموتُ هنا في هذه الصحراء من العطش، بينما يمكنني أن أنعش نفسي في وادي البطيخ والفواكه؟ اللعنة على الهندي وبوّابته المصنوعة من الأبنوس. لقد جعلني أنتظر لفترة طويلةٍ بالفعل. ثمَّ مَن يستطيع أن يحدد القوانين لي؟ إذا كان يجب ألا أدخل مسكنَ أيّ شخص فكيف ذلك وكلُّ مكان يمكنني أن أدخله في مملكتي هو لي؟

لم يفوّت بابابالوك حرفًا واحدًا من هذه المناجاة، وأشادَ بها بكلّ قلبه، وللمرة الأولى وافقت النساء على رأيه.

استضاف الخليفة الأقزامَ وأمر بالاهتمام بهم وتلقّوا كلَّ سبل الحفاوة، وأجلسهم

على وسائد صغيرة من الساتان. كان تناسقُ أجسادهم الغريب جاذبًا لنظر الجميع، لم يُتغاضَ عن بوصة واحدة من أجسادهم دون فحص. قُدمت الهدايا والأطعمة بكثرة، لكن رفضوها جميعًا بجديةٍ واحترام. صعدوا على جوانب مقعدِ الخليفة ووضعوا أنفسهم على كتفيه، ثمّ بدؤوا يتلفظون بالصلوات في أذنه. كانت ألسنتهم ترتجف مثل أوراق نبات الحور، وكان صبر الواثق على وشكِ النفاد، عندما أعلنت هتافاتُ الجنود عن اقتراب فخر الدين الذي جاء مع مائة من الشيوخ ومائة مصحف ومائة من الجِمال. عندما وصلوا بدؤوا على الفور في الوضوء وتكرار البسملة؛ وللتخلص من هؤلاء المراقبين المتطفلين قام الواثق باتباع مثالهم.

الأمير فخر الدين الصالح، الذي كان متدينًا بقوة، وكذلك مولعًا بالمديح، ألقى خطابًا طويلًا ومملًا، وكرّره لخمس مرات حتى لم يعدِ الخليفة قادرًا على الامتناع عن التعليق، فصاح:

- من أجل الله، يا عزيزي فخر الدين، انتهِ. دعنا نذهب إلى واديك ونتمتّع بثمار السماء التي أنعم الله بها عليك.

أشعلَ التقدم والحركة النشاطَ في الجميع، بدأ مرافقو فخر الدين الموقّرون في التقدم ببطء نسبي، لكن الواثق أمر خدمَه الصغار في الخفاء بحثّ الجِمال على الإسراع، فاندلعت نوباتُ ضحك عالية من الهوادج بسبب حركات هذه الحيوانات المحرجة لراكبيها من الشيوخ المسنين.

لكنهم نزلوا إلى الوادي دون أن يُصابوا بأذى، عن طريق الدرجات الكبيرة التي قطعها الأمير فخر الدين في الصخر، وبالفعل بدأ هديرُ الجداول وحفيفُ أوراق الشجر يلفتُ انتباههم. وسرعان ما دخل الموكب إلى طريق تحيط به الشجيراتُ المزهرة، ويمتدُّ إلى غابة ضخمة من أشجار النخيل التي تغطي أغصانُها مبنى من حجر منحوت. وقد توج هذا الصرحُ بتسعة قباب، وزُخرف بعدد مماثل من الأبواب من البرونز، وقد نقش عليها نقش يقول: «هذا هو ملجأ الحجاج، وملجأ المسافرين، ومستودع الأسرار لجميع أنحاء العالم».

وكانت هناك تسعُ جَوارٍ جميلات كالنهار، ومرتديات ثيابَ الكتان المصري، ذوات

طول وبهاء، واقفات عند كل باب. استقبلوا الحاشية بأكملها بترحاب وتواضع. أربعة من أكثرهنّ لطفًا وضعوا الخليفةَ على أريكة رائعة، وأربعة أخريات - أقلّ رشاقة إلى حد ما - تولّوا مسئولية بابابالوك، الذي كان يقفز من الفرح في المقصورة الصغيرة الدافئة التي وقعت من نصيبه.

عندما اختفى كلُّ شيء ذكوريّ عن الأنظار، دارت بوابة ذاتُ سياج كبير على اليمين على مفصلاتها المتناغمة وخرجت شابةٌ ذات جسد ممشوق؛ كان شعرها البنيّ الفاتح يطفو كالنسيم الناعم الساحر الذي يهب عند الغسق؛ وكانت مجموعة من الفتيات الصغيرات اللاتي يبدين مثل عناقيد النجوم يرافقونها على رؤوس أصابع أقدامهن. أسرعوا إلى الأجنحة التي ذهبَ إليها النساء، فقالت لهنّ الشابة وهي تنحني برشاقة:

- أيتها الأميرات الساحرات، كلُّ شيء جاهز؛ لقد أعددنا أسرَّة لراحتكم، ونثرنا غرفَكم بالياسمين؛ لن تبعد أيُّ حشرة النومَ عن زيارة عيونكم، سنطرد الحشرات بألفِ ريشة. أيتها السيدات المرهفات، أنعشوا أقدامكم الرقيقة وأطرافَكم العاجية في حمّامات ماء الورد؛ وعلى ضوء المصابيح المعطرة، سيسليكم خدمكم بالحكايات.

قبِلت الأميرات هذه العروض اللطيفة بسرور، واتبعن السيدة الشابة إلى حرملك الأمير فخر الدين.

وجد الواثق نفسَه تحت قبة واسعة، مضاءة بألف مصباحٍ من الكريستال الصخري؛ وكان هناك العديد من القوارير المملوءة بالشربات الرائع على طاولة كبيرة، حيث نظمت تشكيلةٌ وفيرة من الأطعمة؛ من بينها الخبز الحلو المطبوخ في حليب اللوز، وحساء الزعفران، ولحم الضأن بالكريمة، أحب الخليفةُ كل هذه الأصناف، وتناول من كل طبقٍ قدرَ ما استطاع، وعبّر عن امتنانه لصداقة الأمير بفرحة، وجعل الأقزام يرقصون على عكس رغبتهم، لأن هؤلاء الأقزام لم يجرؤوا على رفض أمرٍ من أمير المؤمنين؛ وفي النهاية تمدد على الأريكة ونام بعمق أكثر من أي وقت سابق.

تحت هذه القبة، اختفى الضجيج وساد الهدوء إلا من صوت فم بابابالوك، الذي كان قد أزال حزامه ليتناول طعامَه بأكبر قدرٍ ممكن من سعةِ بطنه، حيث كان

يحرص على تعويض صيامه في الجبال. وبما أن معنوياته كانت عالية جدًا بحيث لا تسمح له بالنوم، ولأنه لا يحبُّ الجلوس دون عمل؛ قرر أن يزور الحرملك ويتوجه إلى مهمته في رعاية النساء للتحقق مما إذا كانوا مسحوا أجسادهن جيدًا ببلسم مكة(20)، وما إذا كانت حواجبهن وشعورهن في حالةٍ جيدة، وباختصار ليتأكد من أدائهن لجميع الأشياء الصغيرة التي يحتاجونها. بحث لفترة طويلة دون أن يتمكن من إيجاد الباب؛ لم يجرؤ على التحدث بصوت عالٍ خشيةَ إزعاج الخليفة، ولم يكن هناك أي شخص يتحرك في أروقة القصر، كاد ييأس من تحقيق هدفه، وعندما وصل إلى أذنه همس يكاد يسمع؛ جاء من الأقزام الذين عادوا إلى مهنتهم القديمة، وللمرة التاسعة والتسعين في حياتهم كانوا يختمون القرآن. دعوا بشكل مهذب باباباالوك للانضمام إلى رفقتهم، لكن رأسه كان مليئًا بمشاغل أخرى. على الرغم من استياء الأقزام من أخلاقه الفاسدة، وجّهوه إلى الغرف التي كان يرغب في العثور عليها. طريقه إليها امتدَّ عبر ممرات مظلمة، حيث تحسس طريقه أثناء سيره، وفي النهاية بدأ يسمعُ من طرف الممرِّ الحديث الساحر للنساء، الأمرُ الذي أسعد قلبه. صاح بصوت عالٍ وهو يخطو بخطوات طويلة:

- ألم تغفونَ بعد؟ قلتنَّ في أنفسكن إنني تخلّيت عن مهمتي؟ لكن الحقيقة أنني بقيت فقط لأتناول ما تركه سيدي من طعام.

عند سماع الأقزام السود الصوتَ العالي، قام اثنان منهم بسرعة بحمل سلاحهم لاكتشاف سببه، لكن سرعان ما تردد صوت من جميع الجهات:

- إنه باباباالوك. لا أحد سوى باباباالوك.

اقتصر باباباالوك على الذهاب إلى نقابٍ رقيق مصنوع من حرير قرنفلي اللون والذي كان يعلو مدخل الباب، ومن بين الضوء الناعم الذي يتسرب من خلاله ميز حوضًا بيضاويًا مصنوعًا من الرخام الداكن، محاطًا بستائر معلقة بطيّات كبيرة، من خلال الفتحات، حيث لم تكن مشدودة بشكل كاف، كانت مجموعات من الجواري الشابات ظاهرات، وبينهن رأى باباباالوك جواريه، يسترخين ويمدذن أذرعهن تعبيرًا عن استقبالهن للماء المعطر وإنعاش أنفسهنَّ بعد التعب. كانت المظاهرُ اللطيفة

والهمسات السرية والابتسامات الساحرة ورائحة الورود الفاخرة، كلها اجتمعت لتثير الشهوة، حتى إن باباباالوك نفسه كان بالكاد قادرًا على مقاومتها.

ومع ذلك، استعاد وقارَه المعتاد، وبلهجةِ السلطة التي أعطاها له الخليفة أمر الجواري بمغادرة الحمام على الفور. وبينما كان يُصدر هذه الأوامر أشارت الأميرة الشابة نور الصباح ابنة الأمير - التي كانت مفعمة بالحيوية كالغزال، ومليئة بالبهجة المطلقة - إلى إحدى عبيدها لإنزال الأرجوحة الكبيرة، التي كانت معلقة في السقف بحبال من الحرير. وبينما كانت تفعل ذلك، غمزت لرفاقها في الحمام، اللاتي شعرن بالاستياء من إجبارهن على الخروج من حالة الاسترخاء الممتعة هذه، فبدؤوا في لفِّها حول باباباالوك، ومضايقته بالدوران حوله.

عندما أدركت نور الصباح أنه أُنهك من التعب، التفتت إليه باهتمام كبير وقالت:

- أيها السيد، ليس من اللائق بأيّ حال من الأحوال أن يستمر كبير خصيان الخليفة، في الوقوف على هذا النحو. تفضل، اتّكئ بشخصك الجميل على هذه الأريكة، التي سوف تنفجر بالغضب إذا لم يكن لها شرف استقبالك.

أجابَ باباباالوك بشجاعة، بعد أن استحوذت عليه هذه اللهجة الجذابة:

- قرّة عيني، أقبل دعوةَ شفتيك المعسولتين، والحقيقة أحاسيسي تعتريها الدهشة من السطوع الذي يتلألأ من سحرك.

ردَّت الأميرة:

- استرخ إذًا على راحتك.

وجلس على الأريكة المزعومة، التي ارتفعت فجأة بسرعة البرق. وفيما بقية النساء فهمنَ تمامًا تصميم الأريكة الخادع، قفزنَ عاريات من الحمام وبدأن يهززن الأرجوحة بقوة لا ترحم، حتى طارت حتى ارتفاع القبة، وأزالت من الضحية الضعيفة قوته على التنفس. أحيانًا يلامس قدميه سطح الماء، وأحيانًا تكاد النافذة الزجاجية تفرك أنفه؛ عبثًا حاول أن يخترق دوران الهواء بصرخات صوته التي تشبه صوت صفير وعاء مكسور، فكانت ضحكاتهن تفوق ذلك الصوت.

في أثناء هذا المزاح اللطيف، وبالنظر إلى أنها لم تكن معتادة سوى على الأقزام العاديين في الحرملك، كانت نور الصباح أكثر انبهارًا من سائر الحاضرات. بدأت في غناء بعض الأبيات الفارسية مما حفزت الأميرات وخدمهن على المزيد من المزاح، واستمروا في دفع الأرجوحة بجهد لا ينقطع، حتى إنّ الحبل الذي كان يثبتها انفصل فجأة، وسقط بابابالوك متمايلًا مثل السلحفاة في قاع الحمام. تسبب هذا الحادث في صيحةٍ عالية من بابابالوك انفتح على إثر ذلك اثنا عشر بابًا صغيرًا، وفرّ النساء في لحظة بعد أن ألقين جميع المناشف على رأس بابابالوك وأطفأن الأضواء المتبقية.

كان البائس غارقًا في الماء حتى ذقنه، وغارقًا في الظلام كذلك، وغير قادر على تخليص نفسه من المناشف التي حامت حوله، وما زال محكومًا عليه أن يسمع ضحكات النساء التي تجيء من كل مكان.

اندفع للخروج من الحمام ولكن دون جدوى لأن الحافة أصبحت زلقةً جدًا بسبب تساقط الزيت من المصابيح التي كسرت، لدرجة أنه كان ينزلق مرة ثم يغطس ويتكرر الأمر، فجعل هذا الأمر الصوت يتردد عاليًا عبر جوف القبة. مما ضاعف ضحكات النساء عند كل انزلاق. قرر التوقف عن المحاولة والبقاء في الحمام، حيث كان يسلي نفسه بحديث نفسه، التي يتخلله الشتائم لهؤلاء الذي فعلوا به ما هو فيه الآن.

وفي أثناء هذه المحنة فاجأه الصباح. وتعجّب الخليفة من غيابه، فأمر بالبحث عنه في كل مكان. أخيرًا سُحب إلى خارج الحوض، وكان ملفوفًا في مفارش الكتان، ومبللًا حتى النخاع. ظهر أمام سيده وهو يعرج وتصطك أسنانه بقوة، فسأله عن الأمر وكيف أتى مبللًا في وضع غريب كهذا.

أجاب بابابالوك بفظاظة:

- ولماذا دخلت هذا المنزل الملعون؟ هل ينبغي لملك مثلك أن يزور مع حريمه دار أمير ذي لحية رمادية، لا يعرف شيئًا عن الحياة؟ وما أروع الفتيات الساحرات الذي يزخر بهن المكان. هل تصورت في نفسك كيف نقعوني في الماء مثل خبز محروق،

وجعلوني أرقص مثل دمية طوال الليل على أرجوحتهم اللعينة. يا له من درس ممتاز ليقتدي به جواريك، اللواتي زرعت فيهن الحشمة واللياقة.

لم يفهم الواثق حرفًا مما قاله وطلب منه أن يحكي كل ما حدث بدقة؛ ولكن بدلًا من أن يظهر التعاطف مع المصاب البائس، انفجر ضاحكًا بشكل مفرط على الأرجوحة وعلى بابابالوك وهو يهتز عليها. وبالكاد استطاع بابابالوك أن يحافظ على رباطة جأشه واحترامه وهو يقول:

- نعم، اضحك يا مولاي اضحك، لكنني أتمنى أن تقوم نور الصباح بخداعك أيضًا؛ إنها شريرة جدًا لدرجة أنها لن تستطيع حتى أن تحافظ حتى على قدرك أنت.

لم تكن هذه الكلمات لها أثر كبير في ذهن الخليفة في الوقت الحاضر، ولكنها عادت إلى ذهنه بعد فترة وجيزة.

قطع فخر الدين هذه المحادثة، ليطلب من الواثق أن يشارك في الصلاة والوضوء ليحتفي به في روضة واسعة، تسقيها أنهار لا تعد ولا تحصى. ووجد الخليفة أن المياه منعشة، لكن الصلاة كانت مزعجة له للغاية؛ ومع ذلك، كان يشغل نفسه مع العدد الكبير من المتدينين والمتصوفة، الذين كانوا يأتون ويذهبون باستمرار، ولكن انتبه بشكل خاص مع البراهمة(21) والدراويش وغيرهم من المتحمسين الذين سافروا من قلب الهند وتوقفوا في طريقهم مع الأمير. كان لدى هؤلاء كل واحد منهم شعائر خاصة به. كان أحدهم يجر سلسلة ضخمة أينما ذهب، وآخر يجر نمرًا آسيويًا، بينما كان ثالث يحمل السياط، وكان الجميع يقومون بأداء رائع. تسلق البعض الأشجار رافعين أقدامهم في الهواء، واصطف آخرون ليمشوا فوق النار. وكان بينهم من يعشق الحشرات، ولا ينسى مداعبتها. وقد أثار هؤلاء المتعصبون المتجولون حفيظةَ قلوب المتصوفة والمتدينين؛ ولكن سرعان ما هدأت حدة نفورهم على أمل أن يؤدي وجوذ الخليفة إلى تهدئة حماقة هؤلاء، وتحويلهم إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة؛ ولكن للأسف. كم كانت خيبة أملهم كبيرة لأن الواثق بدلًا من أن يعظهم عاملهم كمهرجين، وطلب منهم أن يقدموا تحياته إلى آلهتهم فيشنو(22) وإيكسورا(23)، واكتشف انجذابه لرجل عجوز ضئيل الجسد من جزيرة سيرنديب،

الذي كان أكثر سخافة من بقية الحاضرين. فأمره الخليفة أن يقترب منه:

- من أجل آلهتك، اصفع وجهك لتسليني.

بدأ الرجل العجوز - الذي أحسّ بالإهانة من هذا الطلب - في البكاء بصوت عالٍ، لكنه حينما تدفقت دموعه تحوّل الخليفة عنه واستمع إلى بابابالوك الذي همس، بينما كان يمسك المظلة فوق رأسه:

- يجب أن يكون جلالتك حذرًا من هذا التجمع الغريب الذي لا نعرف لماذا جُمع من الأصل. هل من الضروري أن نعرضَ مثل هذه المشاهد على حاكم عظيم، في وجود هؤلاء الدراويش الأكثر جربًا من الكلاب؟ لو كنت كما عهدتُك لأمرت بإشعال النار، وطهرت الأرض من الأمير فخر الدين ونسائه وجميع حيواناته هؤلاء.

أجابه الواثق:

- ما أحمقك، إن هذا الذي تراه يأخذ تلابيب قلبي، ولن أغادر المرج حتى أزور كل بيت من بيوت هؤلاء المتسولين الأتقياء.

أينما توجه الخليفة، كانت هناك مجموعات من المحتاجين يتوافدون حوله، الأعمى والذي أوشك على العمى، وبعض مقطوعي الأنوف، والفتيات اللاتي قطعت آذانهن، كل واحد منهم يمدح سخاء فخر الدين الذي كان يوزع مع الرجال العجائز المرافقين له الكمادات والضمادات على كل من يطلبها دون مقابل. في منتصف النهار، ظهرت فرقة من المشلولين، تلتها فرق أخرى متوجهون نحو الساحة، وكان أكبر تجمعٍ للمعاقين في مكان واحد في التاريخ كله. التمس الأعمى طريقه مع مَن هم مثاله، والعرج كانوا يعرجون معًا، وهناك عند الشلال كان تجمعٌ ممتلئ بالصم، وأصحاب التشوهات يتبادلون إيماءاتٍ بالذراع الوحيد الذي بقي لديهم؛ وهناك أصحاب انحناءات الظهر الغريبة، وأصحاب الرقاب الملتوية وأصحاب القرون التي نمت في أدمغتهم، والكثير والكثير من أصحاب التشوهات الأخرى.

أمرَ الأمير بتزيين الحفل الذي يكرم زيارة الخليفة الرفيعة بنثر الورود على جميع الجوانب والطرقات، وعلى المفارش قُدمت للمسلمين الصالحين أطباقُ الطعام

الحلال. وبناءً على أمر صريح من الواثق، الذي كان متساهلًا بشكل مُخزٍ قُدّمت أطباق صغيرة من أشياء محرمة لتسلية الآخرين. وعندما رأى الخليفة العديد من الأفواه تتحرك وتلوك الطعام بدأ يعتقد أنه حان الوقت ليأكل هو الآخر. لذلك - رغم كل الاعتراضات من رئيس خصيانه - قرر تناولَ وجبة غداء محضرة في المكان. فورًا، أعطى الأمير أوامر بوضع طاولة في ظل شجرة الصفصاف. وكان الطبق الأول من الأسماك، التي استخرجوها من نهر يجري فوق رمال من الذهب عند سفح تل شاهق؛ وقد شويت بمجرد اصطيادها وقدمت مع خليط من الخل وأعشاب صغيرة تنمو على جبل سيناء المقدس؛ فكل شيء مع الأمير فخر الدين كان رائعًا ولا يخالف الشرع.

لم تكن الحلوى جاهزة تمامًا عندما تردد في الجبال القريبة صوت عزف العود. ولم يكد الخليفة يرفع رأسه وقد انتابته مشاعر السرور والمفاجأة، حتى سقطت على وجهه حفنة من الياسمين. وكان هناك ضحكات في كل مكان، وظهرت على الفور من خلال الشجيرات أشكال أنيقة للعديد من الإناث الشابات، يقفزن ويمرحن مثل الغزلان. العطر المنتشر من شعرهن أصاب إحساس الواثق، الذي قال بابابالوك، وهو يلوك طعامه، في حالة من النشوة:

- هل نزلت نور الصباح من مخدعها؟

عرف أنها هي على وجه الخصوص، لأن شكلها كان مثاليًا للغاية، وهي تركض على الحافة، وتدير رأسها إلى الخلف، وكأنها لا تهتم بأي شيء سوى سحرِ ثوبها الجميل؛ كانت تمر بين الشجيرات متخذة أوراقها كحجاب لها، أضاف الخليفة:

- هل يمكن أن تكون هي التي رمت الياسمين عليّ؟

وأجاب بابابالوك:

- أجل هي، يجب أن ترميها من أعلى التل، هذه هي نور الصباح التي علقتني في أرجوحتها وأهانتني.

وأضاف وهو يلوي غصينًا معلقًا بشجرة صفصاف بغضب:

- سيدي، دعني أؤدبها على عدم الاحترام؛ لن يكون لدى الأمير أي سبب للشكوى، لأنه يستحق اللوم كذلك على احتفاظه بفرقة من الفتيات أعلى التل.

قال الخليفة:

- اصمت ولا تكثر الكلام. لا تقل ذلك عن تلك التي أسرت قلبي وهي تسير على التل؛ بل حاول أن تثبت عيني عليها، حتى أستنشق أنفاسها العذبة، وهي تلهث عبر هذه البراري المبهجة.

عند قول هذه الكلمات، مد الواثق ذراعيه نحو التل، ووجه عينيه بقلق لم يكن يعرفه من قبل، محاولًا إبقاء الشيء الذي فتن روحه داخل نطاق رؤيته؛ لكن مسارها كان متعرجًا مثل تتبع طيران إحدى الفراشات الزرقاء الجميلة نادرة الوجود.

كان الخليفة غير راضٍ عن الرؤية وحدها، رغب أيضًا في سماع نور الصباح وتوجّه بشغف ليستمع إلى صوتها. في النهاية، استطاع أن يميز همسها لأحد رفقائها وراء الشجيرة التي رمت منها الياسمين. قالت:

- من الواضح أن رؤية الخليفة شيء رائع، ولكن غولشنروز الصغير لديه سحر أكثر؛ شعرة واحدة من شعره أكثر قيمة بالنسبة لي من أجمل خيوط حرير الهند؛ فأنا أفضل أن يعضني بأسنانه بمرح على أن أحمل أغلى خاتم في الكنز الملكي. أين هو يا ستلميم؟ ولماذا هو غير موجود الآن؟

ما يزال الخليفة المضطرب يرغب في سماع المزيد، لكنها انسحبت فورًا مع جميع مرافقيها. تابعها الخليفة المحب بعينيه حتى اختفت عن الأنظار، ثمّ استمرّ وكأنه مسافر ضالٌ يسير في الظلام، حيث غطت السحب القمر الذي يضيء له طريقه. بدا أن ستارة الليل قد أسدلت أمامه؛ وكل شيء ظهر بألوان باهتة؛ ملأت المياه المتساقطة روحه بالاكتئاب، وتناثرت دموعه على الياسمين الذي أخذه من نور الصباح ووضعه على صدره المحترق. أمسك حجرًا لامعًا ليذكره بالمشهد الذي شعر فيه بأول اضطرابات الحب. مرت ساعتان ودخل المساء قبل أن يستطيع أن يقرر المغادرة من المكان؛ حاول كثيرًا ولكن بلا جدوى. الكسل أضعف قوى عقله؛ فاستلقى

على حافة الجدول وتحوّل نظره نحو القمم الزرقاء للجبل وصرخ:

- ما الذي تخفيه خلفك؟ وما الذي يحدث في خلواتك؟ إلى أين ذهبت؟ يا الله. ربما تتجولين الآن في جناحك، مع غولشنروز سعيد الحظ.

في هذه الأثناء، بدأ الندى في النزول، وقد أمر الأمير فخر الدين، والذي كان يهتم بصحة الخليفة، بجلب السرير الملكي. ونقل الواثق، الذي كان غارقًا في أفكاره، وعاد إلى الصالون الذي استقبله في الليلة السابقة.

وهناك خلف الصخور كانت نور الصباح مع حبيبها غولشنروز. وهو ابن علي حسن شقيق الأمير، وهو الكائن الأكثر رقة وجمالًا في العالم. عند رحيل علي حسن لمدة عشر سنوات في رحلة إلى البحار المجهولة، أودع عند رحيله هذا الطفل؛ الناجي الوحيد من بين الكثيرين، في رعاية وحماية أخيه. كان غولشنروز قادرًا على الكتابة بخطوط مختلفة بدقة، ويستطيع رسم الزخارف العربية الأنيقة على الجلود. صوته الجميل يرافق العود بأسلوب ساحر، وعندما يغني عن حبيبين كمجنون ليلى، أو عن بعض العشّاق الذين تفرقوا من الأزمان القديمة، تتدفق الدموع على خدود المستمعين. الأبيات التي يلحنها تثير تلك المشاعر التي لا تقاوم والتي غالبًا ما تكون قاتلة لقلب المرأة. النساء كلهن مغرمات به، فعلى الرغم من أنه قد تجاوز عامه الثالث عشر، فإنهن لا يزلن يحتجزنه في الحرملك؛ رقصه خفيف كغصن الشجرة الذي يتمايل بسبب نسمات الربيع، ولكنّ ذراعيه التي تتداخل بأناقة مع ذراعي الفتيات الصغيرات في الرقص لا يستطيعان إطلاق الرمح في الصيد، ولا كبح الخيول التي ترعى في أراضي عمه. لكنه كان يسحب القوس بدقة متناهية، ولو استطاع أن يقطع الروابط التي تجمعه بنور الصباح لكان قد تفوق على كل منافسيه.

كان الشقيقان قد تعاهدا بعضهما البعض بزواج أطفالهما، وكانت نور الصباح تحب ابن عمها أكثر من عينيها. كلاهما كان لديه نفس الاهتمامات والأذواق، نفس النظرات الطويلة المملوءة باللذة، نفس الشعر البني، ونفس البشرة الناصعة. وعندما يظهر غولشنروز في ثوب ابنة عمه يبدو أنه أكثر أنوثة حتى منها. وإذا كان يترك الحرملك أحيانًا لزيارة فخر الدين، فإنه يفعل ذلك بكل خجل كالظبي الذي يخرج بشجاعة

من مأوى أمه. ومع ذلك، كان مشاغبًا بما فيه الكفاية ليستهزئ بالشيوخ ذوي اللحى الرمادية الذين كانوا مسئولين عنه، على الرغم من أنه كان عرضةً للتوبيخ بلا رحمة كردّة فعل. وكلما حدث ذلك، ينغمس في أعماق الحرملك ويبكي، ويجد ضالته في ذراعي نور الصباح، التي تحب حتى أخطاءه أكثر من فضائل الآخرين.

حدث في هذا المساء، بعد أن تُرك الخليفة في المروج، أن جرت نور الصباح وغولشنروز عبر العشب الأخضر للجبل الذي يحمي الوادي الذي اختار فخر الدين الإقامة فيه. كانت أشعة الشمس تنتشر على حافة الأفق، وكانت أفكار الشباب حية ومبتكرة، حيث تخيلوا أنهم يروا في السحب الرائعة في الغروب قباب شادكيام وأمبرآباد(24)، حيث استقرت أرواح البيرسيين(25) التقية. جلست نور الصباح على منحدر التل، ووضعت رأس غولشنروز المعطر على ركبتيها؛ كان المكان هادئًا، ولم يعكر صفوه سوى أصوات الفتيات الأخريات اللواتي كن يسحبن المياه الباردة من الجداول أسفلهم. الوصول غير المتوقع للخليفة، والبهاء الذي ميز ظهوره، قد ملأ بالفعل روح نور الصباح المتحمسة بالعاطفة؛ دفعها غرورها الذي لا تستطيع مقاومته إلى محاولة لفت انتباه الخليفة، وقد اهتمت جيدًا بهذا الأمر من قبل عندما التقط الياسمين الذي ألقته عليه، ولكن عندما سأل غولشنروز عن الزهور التي قطفها لتزين بها صدرها كانت نور الصباح في حالة من الارتباك؛ قبلت جبهته على عجل، ونهضت في حالة من الارتباك، وسارت بخطوات غير متساوية على حافة الهاوية.

جاء الليل، وتحول الذهب النقي للشمس الغاربة إلى اللون الأحمر الزاهي، الذي كان وهجُه مثل انعكاس فرن مشتعل، يحمر وجه نور الصباح المفعم بالحيوية. قال لها غولشنروز، الذي انزعج من انفعالات ابنة عمه المتقلبة، بلهجة توسّل:

- دعينا نذهب؛ فالسماء تبدو مشئومة، ونبات الأثل يهتز أكثر من المعتاد، والريح الباردة تجمد قلبي. هيا دعينا نذهب. إنها ليلة حزينة.

ثمّ أمسك بيدها ووجّهها نحو الطريق الذي طلب منها أن تسلكه. تابعت نور الصباح بلا وعي هذا الجاذبية، إذ كانت أفكار غريبة تشغل روحها. مرت بالعنابية الكبيرة - المكان المفضل لها - دون أن تلقي عليه نظرة، ولكن غولشنروز لم يستطع

أن يمنع نفسه من قطف بعض الورود في طريقه، على الرغم من أنه كان يركض كما لو كان هناك وحش بري يلاحقه. عندما رأتِ الإناث غولشنروز يقترب بهذه السرعة توقعن - وفقًا للعادة - أنه سيراقصهن، اجتمعن على الفور في دائرة وأخذت بعضهن بأيدي بعضهن؛ لكن غولشنروز وهو يقترب ويلهث، سقط مباشرةً على العشب. هذا الحادث ألقى الرعب على كل من يقف هناك بينما نور الصباح كانت في حالة من الارتباك، والتي غلب عليها فيها عنفُ التوتر واضطراب الأفكار، جلست بضعف بجانبه، حملت يديه الباردتين في صدرها، وفركت خديه بمرهم عطري. بعد ذلك استعاد وعيه، وقام بلف رأسه بثوب بنت عمه، وطلب منها ألا تعود إلى الحرملك؛ إذ كان يخشى أن يوبّخه معلمُه شعبان وهو خصي عجوز ذو قامة متجعدة وطبع شرير؛ لأنه خشي بمجرد انتهاء نزهة نور الصباح المعتادة أن يأخذه الرجل القاسي دون هوادة. بدأت هذه المجموعة المرحة بأكملها، وهي تجلس حول تلٍّ مغطى بالعشب في تسلية نفسها بألعاب متنوعة، في حين كان الخصيان يتحدثون بجدية على بعد. حاولت مربية ابنة الأمير تسليةَ تلميذتها التي كانت تجلس تتأمل بعينيها على الأرض بالحكايات المسلية، واستمع إليها غولشنروز بانتباه واضح، والذي كان قد نسي همومَه بالفعل، ضحك وصفّق بيديه، ومرّر مائة خدعة صغيرة على المجموعة بأكملها، دون أن يغفل الخصيان، الذين استفزّهم للركض خلفه، على الرغم من كبر سنهم وهشاشة عظامهم.

خلال هذه الأحداث، ظهر القمر واستقرتِ الرياح، وأصبح المساء هادئًا ومغريًا لدرجة أنه اتخذ قرارًا بتناول العشاء في المكان نفسه. كان سطلميم ماهرًا في تحضير السلاطة، ملأ أوعية كبيرة من البورسلين ببيض الطيور الصغيرة، واللبن المخفوق بعصير الليمون، وشرائح الخيار، وأوراق الأعشاب الرقيقة، ثم قدمَتها للجميع بالتناوب، وأعطت كلُّ شخص حصتَه في ملعقة كبيرة مصنوعة من الخزف أما غولشنروز، الذي كان كالعادة في حضن نور الصباح، فعبسَ بشفتيه الحمراوين ضدّ عرض سطلميم ورفض قبولَ العشاء، وأصر على أن يأخذه فقط من يد بنت عمه، وعلقَ شفتيه على فمه كالنحلة الثملة بروائح الزهور. في هذه الأثناء، ركض أحدُ الخصيان لجلب البطيخ، بينما كان الآخرون مشغولين في قطف حبّات اللوز التي

تتدلى من فوق الأغصان التي تعلو هذه الحفلة اللطيفة.

في خضمّ هذا المشهد الاحتفالي ظهر ضوءٌ على قمة الجبل جذب انتباه كل الأعين؛ هذا الضوء لم يكن أقل سطوعًا من القمر عندما يكون في كامل توهُّجه، ولو لم يكنِ القمر قد طلع بالفعل، لكان بإمكان أحدِهم أن يظن أن هذا الضوء القمرُ ذاته. هذه الظاهرة أثارت دهشةً عامة، ولم يستطع أحد أن يخمن السبب؛ فهذا الضوء ليس نارًا لأن الضوء كان واضحًا، ولونه أزرق، ولم يسبق أن رُئيت شهبٌ بهذا الحجم أو السطوع. اختفى هذا الضوء الغريب للحظة، ثمّ استعاد سطوعه؛ ظهر أولًا ساكنًا عند سفح الصخرة، ثم تحرك فجأة ليتلألأ عند كومة من النخيل، ثم انسابَ على طول النهر الصغير، وثبت أخيرًا في وادٍ ضيق ومظلم. في اللحظة التي ثبتَ فيها الضوء قام غولشنروز، الذي كان قلبه يرتجف دائمًا لأي شيء مفاجئ أو نادر، بسحبِ نور الصباح من ردائها، وطلب منها العودة إلى الحرملك. وكانت النساء ملحّات في تأييد كلامه، ولكن فضول ابنة الأمير غلب عليها؛ فلم ترضَ بالرجوع، بل عزمت على متابعة هذا المشهد مهما كانتِ المخاطر. وفيما كانوا يتناقشون حول ما هو الأفضل للقيام به انتفض الضوء بلمعةٍ ساطعة مخيفة فهربَ الجميع يصرخون، تبعتهم نورُ الصباح بعد خطوات قليلة، لكن عندما وصلت إلى مفترق طرقٍ صغير، توقفت وعادت وحدها، وبينما هي تركض وهي في كامل عقلها لم يمضِ وقت طويل حتى وصلت إلى المكان الذي كانوا قد تناولوا فيه وجبةَ العشاء. الكرة النارية ظهرت الآن ثابتة في الوادي، تحترق في سكون مهيب. تردّدت نور الصباح وهي تضغط يديها على صدرها لبعض الوقت في المضي قدمًا؛ فالعزلة التي أصبحت بها كانت جديدةً بالنسبة لها، والصمت الذي حولها خاصّة في الليل كان مخيفًا، وكلُّ شيء ألهمها أحاسيسَ لم تشعر بها من قبل. فكّرت في الرعب الذي شعر به غولشنروز، وفكّرت في العودة مرات عديدة، ولكن هذا الشيء المضيء كان دائمًا أمامها، كان هناك شيء ما يدفعها للمضيّ. استمرت في التقدم رغم كل العقبات التي تعترض تقدمها.

وأخيرًا وصلت إلى مدخل الوادي، ولكن بدلًا من الاقتراب من الضوء وجدت نفسها محاطة بالظلام، باستثناء وجود شرارةٍ خافتة تتلألأ على مسافة بعيدة بين الحين والآخر. توقفت للمرة الثانية. صوت الشلالات القريبة يمتزج مع أصوات تنفُّسها،

وشجيرات النخيل تُصدر أصواتَ حفيفٍ مجوفة، والصراخ الجنائزي للطيور من جذوع الأشجار المتشقّقة، كل هذا ساهم في ملء قلبها بالرعب. تخيلت في كلّ لحظة كانت تمرُّ أنها تدوس على بعض الزواحف السامة. كلُّ قصص الأرواح الشريرة والغول العملاق احتشدت في ذاكرتها، لكن فضولها كان أقوى من خوفها؛ لذا دخلت بثبات في مسارٍ متعرّج يؤدي إلى تلك الشرارة، ولكن كونها لا تعرف الطريقَ لم يمضِ وقتٌ طويل حتى بدأت تندم على جرأتها.

قالت والرعب يملأ كيانها:

- يا ليتني كنت في تلك الغرف الآمنة والمضاءة حيث أقضي أمسياتي برفقة غولشنروز. آه يا طفلي العزيز، كم كان سيرتجف قلبك من الرعب لو كنت تتجول في هذه العزلة في البرية مثلي!

استعادت طريقها، وعندما وصلت إلى درجات محفورة في الصخر صعدتها دون رهبة. ظهر الضوء الذي كان يتوسع تدريجيًا الآن فوقها على قمة الجبل. أخيرًا ميزت اتحادًا حزينًا ورخيمًا للأصوات، ينطلق مما يشبه الكهف. كانت الأصوات تشبه نحيبَ النساء اللاتي ينحبنَ على القبور؛ كما سمعت أيضًا صوتًا يشبه النوح الذي ينبعث من بعض الطيور؛ على الرغم من هذه الأصوات واصلت الصعودَ واكتشفت مشاعلَ كبيرة تشتعل بألقٍ هنا وهناك في شقوق الصخور. هذا المنظر أثار الخوفَ فيها، بينما تسبّبت الرائحة القوية التي تنبعث من المشاعل في غياب وعيها للحظات عند مدخل الكهف.

وبينما كانت غارقةً من هذه النشوة، رأت حوضًا كبيرًا من الذهب ممتلئًا بماءٍ يبخر على وجهها ندى من روح الورود؛ وانتشرت سيمفونيةٌ موسيقية ناعمة في الكهف، على جوانب الحوض لاحظت تحفًا ملكية، تيجانًا وريش مالك الحزين(26)، كلها تتلألأ كالجمر، وفي الوقت الذي كانت تركز فيه انتباهَها على هذا العرض الرائع، توقفت الموسيقى وصدح صوت:

- لأيّ ملك أشعلت هذه المشاعل؟ ولأيّ شخص مقدس جُهز هذا الحوض، وهذه الملابس التي تنتمي ليس لملوك الأرض فقط ولكن لشخص ذي قداسة سماوية؟

فأجاب صوت ثانٍ:

- هي لابنة الأمير فخر الدين الساحرة.

ردّ الصوت الأول:

- ماذا! لأجل هذه التافهة التي تضيع وقتها مع طفل أحمق، مغمور بالأنوثة، والذي على أفضل تقدير لن يكون سوى زوج أحمق أيضًا.

وردّ الصوت الثاني:

- وهل يمكنها أن تستمتع بمثل هذه التفاهات الفارغة بينما الخليفة سيد العالم، الذي قُدر له أن يستمتع بكنوز سلاطين ما قبل آدم، الخليفة الذي يبلغ طوله ستة أقدام، والذي تخترق عيناه أعماق روح الأنثى، يملؤه حبها. لا. ستكون حكيمةً بما يكفي لطرد هذا الشغف لأنه وحده الذي يمكن أن يعظم مجدها. لا شكّ أنها ستفعل ذلك، وتحتقر الأوهامَ التي في خيالها. فيكون لها كلُّ ثروات هذا المكان، وكذلك ياقوتة جيامشيد(27).

أجابَ الصوت الأول:

- هذا هو الرأي، وأنا سأسرعُ إلى إصطخر لإعداد قصر النار السفلي لاستقبال الزوجين.

توقّفت الأصوات، وانطفأتِ المشاعل، وحلّ الظلام التام، ثمّ استعادت نور الصباح وعيها ووجدت نفسها مستلقية على أريكة في حرملك والدها. صفّقت بيديها، وفورًا حضر غولشنروز وجواريها الذين كانوا في يأس بسبب فقدانها، وأرسلوا الخصيان للبحث عنها في كلّ اتجاه. ظهر شعبان مع البقية وبدأ يوبّخها بشكل صارم:

- هذه وقاحة، من أين حصلت على المفاتيح الزائفة؟ أم أنك في علاقة مع جنيّ يمتلك مفتاحًا؟ أسرعي، تعالي إلى غرفتك من خلال الممر؛ سأختبر قدرتك على تحمّل الحجز في البرج المزدوج، ولا تتوقعي وجود غولشنروز.

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

عندَ سماع هذه التهديدات، رفعت نور الصباح رأسها بغضب، وفتحت عينيها السوداوين والتي منذ الحوار الهام في الكهف المسحور، اتسعت بشكل كبير، ونظرت والشرز ينطلق من عينيها إلى شعبان وقالت:

- اذهب، تحدث هكذا إلى العبيد، ولكن تعلّم أن تحترم الشخص الذي وُلِد ليضع القوانين ويخضع الجميع لسلطته.

وكانت تستمرّ في نهره بنفس الأسلوب، لكنها توقفت فجأة بسبب صيحة مفاجئة:

- الخليفة، الخليفة.

فُتحت الستائرَ على الفور وسجدَ العبيد في صفوف مزدوجة، في حين اختبأ الصغير غولشنروز تحت أريكة. في البداية ظهرت مجموعةٌ من الخصيان السود، تتبعهم أطوالٌ من القماش المطرز بالذهب، ويحملون في أيديهم مبخراتٍ تنشر عبيرًا رائعًا للعود، ثم مشى بابابالوك بمشيةٍ رسمية وهو يرفع رأسه ولا يبدو سعيدًا بالزيارة، تلاه الخليفة بعد ذلك، مرتديًا ثوبًا فخمًا، يسير على تؤدةٍ بمشية ملكية، وكان حضوره سيثير الإعجاب حتى ولو لم يكن سيد العالم. اقترب من نور الصباح وقلبُه ينبض، ويبدو أنه مسحورٌ ببريقِ عينيها الساطعتين، التي رأى منهما نظرات سريعة فقط. لكنها على الفور خفضتهما وزاد ارتباكها جمالها.

كان بابابالوك خبيرًا في التعامل مع مثل هذه الصدف، وكان يعلم أنه يجب أن تُلعب أسوأ الألعاب على أفضل وجه، أعطى إشارة على الفور للجميع بالانصراف. ولم يمض وقت طويل حتى لاحظ تحت الأريكة قدمي الصغير، فسحبه دون أي احترام، ووضعه على كتفيه وأسرف وهو يداعبه كطفل بمداعبة غير لائقة بينما يمشي. صاح غولشنروز وهو يقاوم حتى تحوّل خديه للون أزهار الرمان، والدموع التي تسربت إلى عينيه أطلقت بريقًا من السخط. ألقى نظرةً ذات دلالة على نور الصباح، لاحظها الخليفة وسأل:

- أهذا هو غولشنروز الخاص بك؟

ردّت عليه قائلة:

- يا سيد العالم، ارحم ابنَ عمي، التي لا تستحق براءته ولطفه غضبك.

قال الواثق بابتسامة:

- اطمئني إنه في أيدٍ أمينة. يحب بابابالوك الأطفال، ولا يخلو أبدًا جيبه من الحلوى والفواكه المجففة.

تأثرت ابنة فخر الدين وسمحت لغولشنروز أن يُحمل بعيدًا دون أن تضيف كلمة. كشفت ضجّة صدرها عن ارتباكها، وزاد الواثق اندفاعه، الذي لم يكاد يكبح آخرَ تمرد خافتٍ لضبط نفسه، عندما اقتحم الأمير فخر الدين فجأةً وألقى وجهه على الأرض عند قدمي الخليفة، وقال:

- يا أمير المؤمنين، لا تُنزل نفسك لمنزلة أمَتك.

أجاب الواثق:

- لا يا أيها أمير، إنني أرفعُها إلى مستوى مساوٍ لي. أعلنُها زوجتي، وسيمتدّ عظمة سلالتكم من جيل إلى جيل.

قال فخر الدين وهو ينتزع شعرَ لحيتهَ:

- يا ليت، يا سيدي، أقصر أيام عبدك المخلص بدلًا من أن تجبره على التخلي عن وعده. نور الصباح، وكما تدلّ يداها مخطوبة رسميًا لابن أخي علي حسن غولشنروز. إنّ قلوبهم متحدة أيضًا، والعهود المتبادلة بينهم لا يمكن أن تُكسر.

ردّ الخليفة:

- ثمّ ماذا، أترغب في تسليم هذا الجمال الإلهي إلى زوج أنثوي أكثر منها؟ وهل تتصور أنني سأسمح بإهدار جمالها في أيدٍ ضعيفة وعاجزة؟ لا، إنها مقدّرة لتعيش حياتها في كنفي، هذه هي مشيئتي. فانصرف، ولا تشغلِ الوقت الذي خصّصته لإجلال جمالها.

سحبَ الأمير المنزعج سيفه وقدمَه للخليفة، ومدّ عنقه وقال بصوت ثابت:

- اضرب مضيفك البائس، يا سيدي. لقد عاش مدةً كافية ليرى نائبَ النبي ينتهك آداب الضيافة.

عند نطقه بهذه الكلمات، عجزت نوز الصباح عن مواصلة صراعها العاطفي، وسقطت مغشيًا عليها. ارتعب الواثق على حياتها وغضبَ من معارضة إرادته، وأمر فخر الدين بمساعدة ابنته وانسحب، وهو يلقي نظرته الرهيبة على الأمير الذي تراجع فجأة إلى الوراء، مغمورًا في عرق بارد كرطوبة الموت.

نجا غولشنروز من يد بابابالوك وعاد في تلك اللحظة، صاح يطلب المساعدة بأعلى صوته، فقد عجز عن تقديم المساعدة لها بنفسه. حاول الفتى البريء الشاحبُ اللهث إفاقةَ نور الصباح باللمسات الحانية، وحدث أن الدفء المثير لشفتيه أعادَها للحياة. وبدأ فخر الدين أيضًا في تعافيه من نظرة الخليفة، وترنَّح بصعوبة إلى مقعد، وبعد أن نظرَ حوله بحذرٍ ليرى هل غادر الخليفة الخطير، طلب من شعبان وسطلميم وقال لهما سرًا:

- صديقيّ، الشرور العنيفة تتطلب علاجًا عنيفًا. جلب الخليفة الخرابَ والرعب إلى هنا، ودنَّس طهر عائلتي، فكيف سنقاوم قوته؟ بمجرَّد نظرة أخرى منه سيرسلني إلى قبري. أرى أن تحضرَا ذلك المسحوق المخدر الذي جلبَه الدرويش لي من أراكان(28)؛ سنعطي جرعة منها لهذين الطفلين، وسيظنُّ الخليفة أنهما ماتا، لأنهما سيبدوان وكأنهما ميتان بالفعل؛ سنذهب كما لو كنّا سندفنهم في الكهف، عند مدخل صحراء الرمال الكبرى وبالقرب من كوخ الأقزام. عندما ينسحب جميع المشاهدين، أنت يا شعبان وأربعة من الخصيان المختارين ستنقلونهم إلى البحيرة، حيث ستكون هناك مئونة تكفيهم لمدة شهر.

يومٌ واحد مخصَّص للاندهاش الذي سيُحدثه هذا الفعل، وخمسة أيام للبكاء، وأسبوعان للتأمل، والباقي للتحضير لاستئناف رحلته، وفقًا لتقديري هذا هو كاملُ الوقت الذي سيبقى فيه الواثق، حتى يرحل في سبيله.

قال غولشنروز:

- احتضنيني، يا حبيبتي نور الصباح، ضَعي يدك على قلبي، فإنه يشعر وكأنه متجمّد. يا للأسف. أنتِ باردة مثلي، هل قتل الخليفة كلًّا منا بنظرته المرعبة؟

صرخت هي بصوت متردد:

- أنا في طريقي للفناء، ضمّني أكثر، أنا على استعداد للموت.

أجابَ الصغير غولشنروز، بينما يصدر من صدره تنهدٍ متشنج:

- فلنمت معًا، دَعيني على الأقل أنفس آخرَ أنفاسي في صدرك.

لم يتحدثًا بعد ذلك، وصمتًا كأنهما رحلًا. في الحال، سُمعت أصوات صراخ مريرة في جميع أنحاء الحرملك، في حين قام شعبان وسطلميم بتجسيد دور الحزانى بمهارةٍ كبيرة. لم يكن الأمير - الذي كان مذلولًا بما فيه الكفاية ليضطر إلى تلك الحيلة المؤذية - بحاجةٍ إلى أن يتظاهر بالحزن، فقد كان يجرب مسحوقَه للمرة الأولى الآن، ووقف العبيد الذين تجمعوا من كل مكان حائرين أمام المشهد المروع الذي يظهر أمامهم. أُطفئت جميع المصابيح باستثناء مصباحين يسلّطان نورًا شاحبًا على وجوه هاتين الزهرتين الجميلتين اللتين تبدوان كأنهما ذبلن في فصل ربيع حياتهما. أعدّت ملابس جنائزية، وغسل جسداهما بماء الورد، وجُمّلت خصلاتهم الجميلة وعُطرت، ولفوا بثياب بيضٍ أكثر بياضًا من الدقيق. في اللحظة التي كان فيها خدمهم يضعون إكليلين من الياسمين المفضل لديهما على جباههما، وصل الخليفة الذي سمع للتّو عن الكارثة المأساوية. كان يبدو باهتًا ومرهقًا لا يقل عن العفاريت التي تتجوّل ليلًا بين القبور. نسي نفسَه ونسيَ الجميع، اخترق العبيد، سقط مستسلمًا على قدم الأريكة، ضرب صدره، وأخذ يردّد:

- أنا قاتل بشع.

ونادى بألف لعنةٍ تقع على رأسه. بيدٍ مرتجفة رفع الحجاب الذي يغطي وجهَ نور الصباح، وصرخ في تأوُّه، وسقط مغشيًّا عليه على الأرض. جرّه رئيس الخصيان وعليه تجهمٌ رهيب، وكرر وهو يذهب:

- أجل، توقعت أنها ستُهينك لهذا الحد.

وما إن ذهب الخليفة حتى أمرَ الأمير فخر الدين بإحضار النعوش، ونهى عن دخول أحدٍ إلى الحرملك. وأغلقت كل النوافذ، وحطّم جميع آلات الموسيقى، وبدأ الأئمة في تلاوة صلواتهم.

قربَ نهاية هذا اليوم الكئيب، بكى الواثق بصمتٍ لأنهم اضطروا لاستخدام أعشاب مسكنة لتهدئة نوبات غضبه ويأسه.

عندَ فجر الصباح التالي، فتحت أبوابُ القصر الواسعة، وتحرك موكبُ الجنازة نحو الجبل. وصلت أصوات البكاء المحزنة إلى أسماع الخليفة، وردّد الناس «لا إله إلا الله"، كان حريصًا على تطهير نفسه وحضور الجنازة؛ ولم يكن بإمكان أحدٍ ثنيه على عدم فعل ذلك، لولا ضعفُه الشديد الذي حال دون قدرته على المشي؛ حيث سقط على الأرض في أولى خطواته، واضطرّ أنصاره لوضعه على سرير، حيث بقيَ عدّة أيام في حالة فقدان وعي أثارت الشفقةَ حتى في الأمير فخر الدين نفسه.

عندما وصل الموكب إلى الكهف، أرجعَ شعبان وسطلميم كلَّ مَن في الكهف، باستثناء الخصيان الأربعة الموثوق بهم الذين عُينوا للبقاء. بعد أن استراحوا لبضع لحظات بالقرب من النعوش التي تركت في الهواء الطلق، قاموا بنقلها إلى حافةِ بحيرة صغيرة، تحيط بها طبقةٌ من الطحالب الرمادية. وكان هذا المكان المفضّل لمالك الحزين واللقالق الذين يفترسون بلا توقفٍ الأسماكَ الزرقاء الصغيرة. قام الأقزامُ بتعليمات من الأمير، بالتوجه إلى هناك بسرعة ومساعدة الخصيان، وبدؤوا في بناء كوخٍ من الخوص وأفرع الأشجار المختلفة، وهُم يتمتعون بمهارة رائعة في هذا العمل. جُهز مستودعٌ للمؤن ومصلّى صغيرٌ لهما، وكدّس هرمٌ من الحطب بعناية لتوفير الوقود اللازم، حيث كان الهواء باردًا في تجاويف الجبال.

في المساء، أُشعلتِ النار على حافة البحيرة، ووضع الجسدان الجميلان المأخوذان من النعوش بعناية على سرير من أوراق الشجر المجفّفة داخل الكوخ. بدأ الأقزام في تلاوة القرآن بأصواتهم النقية العالية، ووقف شعبان وسطلميم على بعد مسافة معتدلة، ينتظران بقلق انتهاء تأثير المسحوق المخدر. وأخيرًا قامت نور الصباح وغولشنروز بتمديد أذرعِهما بشكل ضعيف، وبدءا بفتحِ عيونهما تدريجيًا، وبدأت

عيونهم في استكشاف كلّ شيء حولهما بتعجب متزايد. حاولا النهوضَ ولكن بسبب ضعف قوتهما سقطَا مرة أخرى، فقام سطلميم بإعطائهما شراب مقوٍ، والذي تأكد الأمير من توفره حين يستيقظان.

استفاق غولشنروز، وعطس بصوت عالٍ، ثمّ قام بصعوبة مملوءًا بالدهشة وخرج من الكوخ وشمَّ الهواء النقي بأكبر رغبة لديه. قال:

- لا أصدق أنني أتنفّس مرة أخرى، لا أصدق أنني حيٌّ من جديد. أسمع أصواتًا، أرى سماء مرصعة بالنجوم.

عندما سمعت نور الصباح هذه النبرةَ المحببة إليها تحرَّرت من أوراق الشجر التي تلفُّها وركضت لتحتضن غولشنروز. أولُ الأشياء التي لاحظتها هي الثيابُ الطويلة التي يرتديانها، وأكاليل الزهور التي معهما، وأقدامهما العارية. خبأت وجهها بيديها لتفكر. تذكرت رؤيةَ الحمام المسحور، ويأس والدها، وبشكل أكثر وضوحًا من تذكر والدها وما حدث في الحمام، تذكرت الشخصية المهيبة للخليفة الذي ظهر لها في المنام. تذكرت أيضًا أنها وغولشنروز كانا مرضى وعلى وشك الموت، لكن كلّ هذه الصور أربكت ذهنَها. لا تعرف أين هي. حوَّلت عينيها في جميع الاتجاهات، كأنها تحاول التعرفَ على المشهد المحيط بها. هذه البحيرة الغريبة، تلك النيران التي تنعكس من سطحها الزجاجي، والألوان الباهتة لضفافها، والكوخ الشاعري، والنباتات الباثقة التي تهز رؤوسها المتدلية بحزن، وأصوات اللقالق التي تمتزج مع أصوات الأقزام النقية، كل شيء يشترك في إقناعها بأنَّ ملاك الموت فتح بوابة العالم الآخر.

كان غولشنروز مفتونًا بدوره، ومتشبثًا بعنق ابنة عمّه. ظنَّ أنه في عالم الأشباح وكان مرعوبًا من الصمت الذي حافظت عليه نور الصباح. وأخيرًا وجّه لها الكلام قائلًا:

- أين نحن؟ تكلمي. ألا ترين هذه الأشباح التي تحرك الجمر المشتعل؟ هل هما منكر ونكير، وقد جاءا ليرمونا في النار؟ هل يعبر الجسر المميت(29) هذه البحيرة، التي ربما تخفي في هدوئها الواضح هاوية سنغرق فيها بلا توقف لعصور قادمة.

قاطعَ حديثهما سطلميم وهو يتّجه نحوهما:

- لا يا أبنائي، اطمئنّا. ملاك الهلاك الذي قاد أرواحنا إلى هنا بعد أن أخذ روحيكما، أكد لنا أنه سيكون عقابُ حياتكما الكسولة والشهوانية مقتصرًا على سلسلة من السنوات التي يجب أن تمروا بها في هذا المأوى الكئيب، حيث تكاد الشمس تكون غير مرئية، وحيث لا تنبت الأرض ثمارًا ولا زهورًا.

أشار إلى الأقزام ثم استطرد:

- هؤلاء سيجلبون حاجتكما، ولأنّ النفوس الدنيوية مثلكما تحتفظ بأصلها الأرضي. سيكون طعامكما الأرز بدلًا من اللحوم، وسيكون خبزكما مبللًا بالضباب الذي يخيم على سطح البحيرة.

انهارَ الطفلان البريئان في البكاء في مواجهة هذا المشهد المحبط، وسجدَا أمام الأقزام الذين أدوا دورهم بشكل مثالي، وألقوا خطبةً قوية عن الناقة المقدسة التي ستنقلهم بعد ألف عام إلى جنة المؤمنين.

انتهتِ الخطبة وتوضأوا، ثمّ قدموا الشكر لله وأثنوا على النبي، وتناولوا طعامًا عاديًا جدًا، ثمّ انسحبوا إلى أوراقهم الذابلة. اطمأنث نور الصباح وابن عمّها الصغير عندما اكتشفا أنهما على الرغم من كونهما ميتين، إلا إنهما لا يزالان مستلقيَين في نفس الكوخ. قضيا بقيةَ الليل في الحديث عما حدث لهما، وخوفًا من الأشباح، استنجدا بأحضان بعضهما البعض للاطمئنان.

في الصباح، الذي كان مظلمًا وممطرًا، صعد الأقزام على أعمدة عالية مثل المآذن ودعوهم للصلاة. كانت الجماعة بأكملها مكونةً من سطلميم وشعبان والخصيان الأربعة وبعض اللقالق قد تجمّعوا بالفعل. خرج الطفلان من كوخِهما بخطى بطيئة ومكتئبة؛ حيث كانت عقولهما في حالة مزاجية حساسة وحزينة، أتموا الصلاة بحماسة. وبمجرّد الانتهاء من الصلاة، سأل غولشنروز سطلميم والباقين عن كيفية موتهم وخاصة في الوقت المناسب بعده وابنة عمه؟

أجاب سطلميم:

- في لحظات يأس بعد وفاتكما، قتلنا أنفسنا.

قالت نور الصباح التي لم تنسَ رؤيتها بعد على الرغم من الماضي:

- والخليفة! أليس قد ماتَ هو أيضًا من حزنه؟ وهل سيأتي هنا أيضًا؟

ردَّ الأقزام الذين كانوا مستعدّين للإجابة، بكل هدوء:

- الواثق ملعون بلا رحمة.

قال غولشنروز:

- أتقبّل ذلك بسرورٍ من قلبي، وسعيد للغاية لسماعه. لأنني واثق أن نظراته المرعبة هي التي أرسلتنا إلى هنا لنستمعَ إلى خطبٍ ونتناول الأرز.

مرَّ أسبوع واحد على جانب البحيرة دون أي جديد. كانت نور الصباح تفكر في العظمة التي حرمها منها الموت، وغولشنروز يهتمُّ بالصلوات، إلى جانب الأقزام الذين أسعدوه بلا حدود.

في حين كان هذا المشهد يحدث في الجبال، قدّم الخليفة نفسه إلى الأمير فخر الدين بطريقة جديدة. حالما استعاد وعيَه، وبصوت جعل باباباالوك يرتعد، صاح قائلًا:

- أيها الهندي الخائن، أنا أتخلّى عنك إلى الأبد. أنت مَن قتلت حبيبتي نور الصباح. وأنا أتوسل إلى محمد أن يغفرَ لي، فلو كنت أكثرَ حكمة لحفظتها لي. أحضروا الماءَ لأقوم بالوضوء، واستدعوا فخر الدين التقي ليصلّي معي. بعد ذلك سنذهب معًا لزيارة قبر نور الصباح المظلم؛ لقد قررت أن أصبح راهبًا وأقضي بقيةَ أيامي على هذا الجبل، عسى أن أكفّر ذنوبي.

لم تكنْ نور الصباح مرتاحة تمامًا، فعلى الرغم من أنها شعرت بمحبة تجاه غولشنروز فقد تُرك بكامل الحرية معها، إلا إنها لا تعتبره سوى شيء تافه لا يمكنه المنافسة مع ياقوتة جيامشيد. في بعض الأحيان كانت تشكُّ في طبيعة وجودها، وكان يصعب عليها تصديقُ أن الموتى يشتهون ويرغبون كما يفعل الأحياء. ولكي تحصل على إجابات واضحة وإرضاء لروحها في هذا الموضوع المحير، قامت في

إحدى الصباحات بحذرٍ وارتباك من جنب غولشنروز، وبعدما قبّلته قبلةً خفيفة، بدأت في اتباع مجرى البحيرة حتى وصلت إلى صخرة عالية يمكن الوصول إلى قمتها وإن كانت مرتفعة، تسلقتها بجهدٍ كبير، ثمّ انطلقت بسرعة كالغزال التي تتبع صيادَها دون قصد، وعلى الرغم من أنها قفزت بنشاط الغزال إلا أنها كانت مضطرّة في بعض الأحيان للتوقف والاستراحة تحت نبات الأثل لتستعيد أنفاسها.

وفيما هي مستلقية هكذا، وتفكر وتتأمل في إمكانية أن يكون لديها بعضُ المعرفة بهذا المكان، ظهر الخليفة فجأة أمامها والذي كان غيرَ مرتاح في ذلك الصباح وقد خرج قبل الفجر.

برهةً من الدهشة، لم يجرؤ على الاقتراب من الشخص الذي كان مستلقيًا أمامه، ملتفًا بثوبه ومرتجفًا وشاحبًا، ولكنه لا يزال جميلًا للناظرين. وأخيرًا رفعت نورُ الصباح عينيها الجميلتين إليه بمزيج من السعادة والحزن، وقالت:

- سيدي، هل أتيتَ إلى هنا لتأكل الأرز وتستمع إلى الخطب؟

صاح الخليفة قائلًا:

- أيها الشبح المحبوب! هل تتكلم؟ لديك نفس الهيئة الرشيقة، نفس الوجه الساطع، هل أستطيع لمسك؟

وبعد أن عانقها بشغف، أضاف:

- هذه أطرافٌ وصدر ممتلئان بالحياة! ماذا يمكن أن تعني مثل هذا المعجزة؟

ردّت نور الصباح بتواضع:

- تعلم يا سيدي، أنني متُّ في الليلة التي شرفتني فيها بزيارتك، يصرُّ ابنُ عمي على أن سبب وفاتي كانت إحدى نظراتك، لكنني لا أستطيع أن أصدقّه، فبالنسبة لي لا تبدو تلك النظرات مرعبة. توفي غولشنروز معي، وأُحضِرنا جميعًا إلى منطقة مقفرة، حيث نُطعم بنظام غذائي بائس. إن كنت توفّيت أيضًا وأتيت إلى هنا لتنضمّ إلينا، فأنا أشفقُ على مصيرك؛ فسوف تُصاب بصدمة من ضجيج الأقزام واللقالق.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه أمرٌ محزن للغاية أن تكون قد فقدتَّ - كما فعلت أنا - كنوزَ القصر السفلي.

عندَ ذكر القصر السفلي، انتبه الخليفة وعلق احتضانه لنور الصباح لكي يستفسر منها عن معنى كلامها. وقدمت نورُ الصباح نسخة ملخَّصة لرؤيتها وما تلاها من أحداث، تاريخ وفاتها الزائف، بالإضافة إلى وصف المكان المقفر الذي هربت إليه، وذلك بطريقة كادت أن تستطيع إثارةَ ضحكات الخليفة لولا أنَّ تفكيره كان مشغولًا بأمور أخرى. ولكن لم يمض وقتٌ طويل بعد انتهائها حتى عانقَها مرة أخرى وقال:

- نور عيني، فهمتُ أخيرًا غموضَ ما حدث. نحن حيّان بالتأكيد. والدُك هو المحتال، خدعنا لأجل أن يفرقنا، والهندي الذي يريد أن يجمعَنا مع بعضنا البعض، حسب ما أستطيع استشفافه، هو أفضل بقدر طفيف من والدك، لن يمرَّ الكثير من الوقت حتى يجدنا في قصره الناري. في تقديري أنت أثمنُ بكثير من كل كنوز السلاطين السابقين لآدم، وحتى يحين لنا امتلاكُ هذه الكنوز ونجلس هناك في هذا القصر انسني هذا الثرثار الصغير غولشنروز.

قاطعته نور الصباح عندما ذكر اسمَ غولشنروز قائلة:

- أتوسَّل إليك ألا تلحق به أي أذى.

أجاب الخليفة:

- لا. لا. طلبت منك بالفعل ألا تقلقي بشأنه. إنه طفلٌ صغير يشرب الحليب ويأكل السكر، وهو أقل بكثير من أن يثير غيرتي. سنتركه مع الأقزام، أظنُّ أنه سيكون مرتاحًا مع صحبتهم أكثر من صحبتك. أما بالنسبة للأمور الأخرى، فلن أعود فيها إلى والدك بعد الآن. لا أرغب في أن يتعبَ أذناي بشكاوى منه ومن عجائز قومك حولَ خرق آداب الضيافة، كما لو كان مَن خرقها زواجك بسيد العالم بدلًا من هذا الطفل الصغير.

لم تجذ نور الصباح أيَّ شيء لتعارض به هذا الخطاب البليغ. كانت تتمنى فقط أن يبرز الخليفة المغرم المزيدَ من الحماس حول ياقوتة جيامشيد. ومع ذلك، ظنت أن

الحماسَ سيزداد تدريجيًا؛ ولذا استسلمت لإرادته بأكثر الطرق خضوعًا وسحرًا.

عندما اعتبر الخليفة أن الوقتَ مناسب، نادى على بابابالوك الذي كان نائمًا في الكهف الذي ظنوا أن نور الصباح دفنت فيه، وكان يحلم أنَّ شبح نور الصباح، بعد أن أركبته مرة أخرى على أرجوحتها، دفعته بقوة حتى ارتفع فجأة فوق الجبال ثمَّ هوى في الهاوية في اللحظة التالية. عندما استيقظ من نومه بسبب نداء سيده، تراجع للخلف في رعبٍ عندما ظن أنَّ الشبح الذي كان يطارده في الحلم منذ لحظات أصبح واقعًا، يقف أمامه بشحمه ولحمه. ثمَّ صرخ قائلًا:

- هل حفرت قبرَ هذا الوحش يا سيدي؟ أتقوم الآن بدور الجني الذي يحيي الموتى، هذه الشريرة ستؤذيك في النهاية.

قال الخليفة:

- كفَّ عن حماقاتك، إنها نور الصباح ذاتها حيَّة وبخير، ها أنا أضمُّها إلى صدري. اذهب الآن وانصب خيامي في الوادي المجاور. سأقيم هناك برفقةِ هذه الزهرة الجميلة، وسأعيد لها بريقها قريبًا. ابذل قصارى جهدك لتوفير كلّ ما نحتاجه من متع الحياة، حتى أكشف لك عن المزيد من رغباتي.

سرعانَ ما وصلت أنباء هذا الحدث السيئ إلى أذني الأمير فخر الدين، الذي وقع في براثن الحزن واليأس، وبدأ - وجميعُ حكماء قومه - في تلطيخ وجوههم بالرماد. تلا ذلك كسلٌ عام، لم يعودوا يستضيفون المسافرين، ولم يعودوا يعرضون على أحدٍ الوصفاتِ الطبية، وبدلًا من النشاط الخيري الذي تميز به المكان أصبح جميع سكانه يعرضون عن الناس، ويظهر على وجوههم حزنٌ يتوافق مع وضعهم المذري.

على الرغم من أن فخر الدين كان ينعى ابنته كأنها ضاعت منه إلى الأبد، إلا أنه لم ينسَ غولشنروز. أرسل فورًا تعليمات إلى سطلميم وشعبان والأقزام مطالبًا إياهم بعدم إفشاء الحقيقة للطفل بخصوص وضعه، ولكنهم يجب عليهم أن ينقلوه بحجة ما بعيدًا عن الصخرة الشاهقة على طرف البحيرة، إلى مكان يحدده هو، كإجراء أكثر أمانًا من الخطر؛ لأنه يشك في أن الواثق ينوي له شرًا.

في هذه الأثناء وقع غولشنروز في دهشة وتساؤل لعدم وجود ابنة عمه، ولم يكن الأقزام أقل دهشة منه لاختفائها. ولكن سطلميم، الذي كان أكثر بصيرة، خمن ما حدث على الفور. حلم غولشنروز بأمل خادع في أن يعانق نور الصباح مرة أخرى في قصرهم، حيث تكون الأرض مغطاة بأزهار البرتقال والياسمين، وعلى أسرّة أكثر جاذبية من أسرة أوراق الشجر في كوخهم، حيث يمكن أن ترافق أصوات حديثهم أصوات العود ويطاردون الفراشات أثناء سماع الموسيقى. استفاق سطلميم من غفوته، عندما أشار أحد الخصيان الأربعة إليه ليبلغه بوصول رسول من القصر، والذي شرح له سرّ هروب نور الصباح وبلغه بأوامر الأمير. بعد ذلك عقد اجتماعًا على الفور مع شعبان والأقزام؛ وبعد تحميل أمتعتهم استقلوا مركبًا صغيرًا وأبحروا بسكون مع غولشنروز الذي وافق على جميع اقتراحاته. استمرت رحلتهم حتى وصلوا إلى المكان الذي تختفي فيه البحيرة تحت جوف الصخرة الكبيرة؛ ولكن بمجرد أن دخل القارب، وجد غولشنروز نفسه محاطًا بالظلام، وانتابته حالة من هلع رهيب، ولم يتوقف عن الصراخ لأنه ظن أنه سيكون مدانًا لأنه حصل على الكثير من الحرية في حياته مع ابنة عمه.

نصب بابابالوك الخيام وأغلق طرفي الوادي بأقمشة رائعة من قماش الهند، يحرسها العبيد الأثيوبيّون بسيوفهم المسلطة، وللحفاظ على خضرة المنطقة المسيجة بالأقمشة بنضارتها الطبيعية، كان الخصيان البيض يدورون حولها ويرشون الماء من أواني حمراء. كان صوت الناس المارون يتردد بالقرب من الخيمة الملكية، حيث كان الخليفة يستمتع برؤية سحر نور الصباح من خلال النور الرقيق الذي يتسلل من خلال القماش المنقوش. كان مسكرًا بالسعادة، وكان مستمعًا بكل أذن صاغية لصوتها الساحر الذي كان يرافق عزف العود، بينما كانت هي لا تقل انبهارًا عنه عندما استمعت لوصفه عن سامراء، مدينته الحبيبة وبرجه المليء بالعجائب، ولكن خاصة بسرده لمغامرة الهندي وهاويته وبوابتها المصنوعة من خشب الأبنوس.

وبهذه الطريقة تحادثا لمدة يوم وليلة، استحمّا معًا في حوض من الرخام الأسود، الذي أبرز جمال نور الصباح بشكله الرائع. لم يدخر بابابالوك - الذي استعاد إعجابه بهذا الجمال - جهدًا في تقديم وجباتهما بأدق التفاصيل؛ حيث وضع لهم دائمًا نوعًا

ممتازًا من الأطعمة النادرة؛ وأرسل حتى إلى شيراز لجلب النبيذ العطري اللذيذ الذي خُزن في زجاجات من قبل ولادة محمد. قام بحفر بعض الأفران في الصخرة لخبز الخبز اللذيذ الذي تحضره يدا نور الصباح، ومن هنا جاءت نكهته التي أعجبت الواثق حتى اعتبر الأطباق التي يقدمها زوجاته الأخريات له خالية تمامًا من لذة الطعام؛ في حين أنهن كن سيمتنَ بسبب استياء الخليفة، عندما فهمن من استيائه أنهن مهملات لهذا الحد، لولا أن فخر الدين - وعلى الرغم من غضبه - نظر إليهن بعين الشفقة.

تأثرت زوجته الأميرة ديلارا، التي كانت المفضلة لديه حتى ذلك الحين، بهذا التخلي القوي والمفاجئ من الخليفة نتيجة لطبيعة شخصيتها العاطفية. ففي خلال فترة استمرارها معه، تعلمت منه العديد من الأفكار المتطرفة وشعرت بالشوق الشديد لرؤية أضرحة إصطخر الرائعة وقصر الأعمدة الأربعين. بالإضافة إلى ذلك، هي نشأت بين المجوس وكانت تحب فكرة تفاني الخليفة في عبادة النار وقوى الظلام. لذلك كانت حياتها الدنيئة والمتهورة معه مصدرَ المتعة الرئيسية بالنسبة لها. لذلك كانت فترة التقوى والتوبة التي مر بها الواثق أهم أسباب الألم والغم التي أحسّت بهما في هذه الفترة، ولكن الوضع الحالي أخطر بكثير؛ لذا قررت بلا تردد أن تكتب إلى قراطيس وتخبرها أن الأمور تسوء، وأنهم تناولوا الطعام وناموا واحتفلوا في منزل أمير تقواه لا مثيل لها، وأن احتمال امتلاك كنوز سلاطين ما قبل آدم أصبحت أكثر بعدًا من ذي قبل. ثم عهدت بهذه الرسالة لحطابين يعملان في إحدى غابات الجبال الكبيرة، وبفضل معرفتهما بأقصر الطرق، وصلا إلى سامراء في عشرة أيام فقط.

كانت الأميرة قراطيس مشغولة في لعبة شطرنج مع موركاناباد عندما أُعلن وصول الحطابين. بعد عدة أسابيع من غياب الواثق. تخلت قراطيس عن الأجزاء العليا من برجها، لأن كل شيء بدا في حالة من الفوضى بين النجوم التي استشارتها بشأن مصير ابنها. باءت محاولاتها البائسة عن طريق نشر البخور والاستلقاء على السطح للحصول على رؤى سحرية بالفشل، فلم ترَ في أحلامها سوى قطع من القماش المزخرف وباقات من الزهور وأغراض أخرى لا معنى لها. هذا الفشل أدى بها

إلى حالةٍ من الإحباط لا يمكن لأيّ دواء في وسعها أن تحصل عليه أن يزيله. كان موركاناباد هو المصدرَ الوحيد من البشر حولها الذي ظلت تثق به، فهو رجلٌ طيب وممتلك لنصيب لائقٍ من الحكمة، ولكنه بدوره لم يكن يشعر بالراحة بجانبها أبدًا.

لا يعرف أيُّ شخص شيئًا عن الواثق، وترددت العديدُ من القصص السخيفة عنه وعما يفعل. يمكن بسهولة تخمين الحماسة التي استلمت بها قراطيس الرسالة، وكذلك غضبها عند قراءة سلوك ابنها الفاسد من وجهة نظرها. قالت في غضب:

- هكذا هو الأمر إذًا، إما أن أهلك، أو يدخل الواثقُ قصرَ النار. فلأموت أنا محترقة في النار، ويحكم هو عرشَ سليمان.

بعد قولها ذلك دارت حول نفسها بطريقة سحرية، مما أرعبَ موركاناباد، ثم أمرت بجلب جَملها الضخم الذي تسمّيه البوفاكي والمشوّهة نيركس والقاسية التي لا تملك الرحمة كافور، ليصاحبوها في رحلتها. قالت لموركاناباد:

- لا أحتاج إلى مرافقين آخرين غير هاتين. أنا راحلةٌ للتعامل مع أمور طارئة؛ لذا توقف عن الاستعراض. اعتن بالناس واستنزفهم جيدًا في غيابي، فسننفقُ مبالغ كبيرة الفترةَ القادمة ولا أحد يعرف ما قد يحدث.

كانت الليلة غيرَ عادية، مظلمة للغاية، وكانت رياحٌ عاتية تجتاح السهول بقوة ولكانت تلك الرياح قد ردت أي مسافرٍ آخر مهما كانت حاجتُه للسفر عاجلة. ومع ذلك، كانت قراطيس تستمتع بما يحدث ما أثار الرعبَ في الآخرين. وافقت نيركس رأيها، وكانت كافور تحبُّ بشكل خاص التحديات المميتة. في الصباح، توقفت القافلة المؤلفة من هؤلاء المسافرين المهَرة، مع الحطّابين اللذين كانا يتأمران القافلة لمعرفتهم بالطريق، على حافة مستنقع واسع، حيث ارتفعت أبخرةٌ ضارة جدًا يمكن أن تدمر أيّ حيوان غير البوفاكي، الذي يتنفس هذه الأبخرة الخبيثة بشكل طبيعي. توسّل الحطابان ألا يناموا في هذا المكان.

صاحت قراطيس:

- النوم! يا لها من فكرة رائعة. أنا لا أنام إلا لأرى الرؤى. وأما بالنسبة للمرافقين،

فأعباؤهما كثيرة جدًا حتى يغلقوا العينَ الوحيدة لكل واحد منهم.

ذُهل الحطابان البريئان - اللذان لم يكونا سعداء جدًا برفقتهم - من هذه الكلمات.

قامت قراطيس وأمّتاها، بعد أن خلعنَ ملابسهنَّ الخارجية، بالركض جميعًا في ملابسهنَّ الداخلية ليقطفنَ من الأماكن التي تشرق فيها الشمس بحرارة عالية النباتاتِ السامةَ التي تنمو على أطراف المستنقع. أُعد هذا السم لعائلة الأمير فخر الدين، وأيّ شخص قد يعوق البعثة إلى إصطخر. انتاب الحطابان الخوف عندما رأوا هذه الأشباح الثلاثة المرعبة تركض، وكانا خائفين كذلك من وجود البوفاكي، ووقفًا لا حول لهما ولا قوة أمام أمر قراطيس التي عزمت على المضيّ فيما تفعل، على الرغم من أنه كان الظهر، وكانت الحرارةُ شديدة بما يكفي لتحول الصخور إلى رماد. وعلى الرغم من كل الاعتراضات، أجبرًا على الانقياد للأمر.

كان البوفاكي يسعد بالعزلة، وكان يزمجر باستمرار عندما يشعر بقربه من مساكن البشر؛ وكانت قراطيس التي كانت تفسده بمعاملة رقيقة قد عوّدته على العيش فيه هذه العزلة، ومع ذلك فقد منع الحطابين من الحصول على طعامهم؛ فالماعز الحلوب والنعاج، التي أرسلها القدرُ نحو المنطقة التي يعبرونها، لتطعم المارّين بحليبها، هربت جميعًا عند رؤية هذا الحيوان المرعب وراكبيه الغرباء. أما قراطيس، فلم تحتج إلى طعام عادي، فقد تناولت في السابق اختراعًا لها لتهدئة جوعِ معدتها، وقد أعطت بعضه إلى خدمها الصم.

عند قدوم الليل، وقف البوفاكي فجأة، وقام بضرب قدمِه على الأرض، علامة مؤكدة لقراطيس، التي كانت تفهم تلك الضربات، وفسّرتها أنها قربت من حدود مقبرة ما. ألقى القمر ضوءًا ساطعًا على المكان، مما ساعد على اكتشاف جدارٍ طويل، يحتوي على بابٍ كبير مفتوح، ومرتفع بحيث يمكن للبوفاكي دخوله بسهولة. الحطابان البريئان اللذان شعرًا بقرب نهايتهما لقلة الماء والطعام، ضاقت أنفاسهما عندما وصلا لهذا المكان، توسّلا لقراطيس إذا ماتا أن تدفنهما بشكل لائق، وتنفّسا أنفاسهما الأخيرة تباعًا في لحظات متقاربة. كانت نيركس وكافور تمتلكان ذكاءً خارقًا، واستخدمتاه في الحكم على حماقة هذين المسكينين اللذين لم يكن يمكن

العثور على شيء يتناسب أكثر مع أذواقهما في الدفن من موقع المقبرة التي وصلوا إليها والقبور التي تحتوي عليها؛ فكان هناك ما لا يقل عن ألفي قبر على سفح تلة، بعضها على شكل أهرامات، وأخرى مثل الأعمدة، وكان تنوع أشكالها لا ينتهي. وكانت قراطيس مشغولة جدًا في تأملاتها السامية لتتوقفَ عند المشهد الذي تراه، وعلى الرغم من أنه بدا ساحرًا في عينيها إلا إنها لم تستطع أن تمنع نفسَها من أن تصرخ داخليًا قائلة:

- إنَّ مقبرةً بهذا الجمال يجب أن تكون مسكونة بالأرواح. وهم أذكياء للغاية حتى يعرفوا أنني التي تعمدت أن يموت هذان المسكينان، حتى يكونا حلقة وصلٍ لنا في معرفة الطريق، وكحافزٍ سأدعو الأرواح للاستمتاع بتلك الجثث الطازجة.

بعدَ هذا الخوض الداخلي القصير، أومأت قراطيس لنيركس وكافور، وقامت بعمل إشارات بأصابعها، كأنها تقول «اذهبا، اقرعا جوانبَ القبور، وابدءا بألحانكما الرائعة التي تشبه إلى حد كبير تلك التي يصدح بها الضيوف الذين أتمنى مشاركتهم».

فرحت الأمَتان بأوامر سيدتهما، وتوقعتا أن يحصلَا على الكثير من المتعة من مجالسة الأرواح، ذهبتا بمظهر الانتصار، وبدأتا بقرع جوانب القبور. مع تكرار قرعهما سُمع صوت ضوضاء آتية من جوف الأرض، وتحول السطح إلى أكوام، وبدأت الأرواح تبرز أنوفها من جميع الجهات، لتستنشق الروائح التي بدأت الجثتان والأخشاب التي حولها تطلقها جراء احتراقهما.

تجمعوا أمام نصب من الرخام الأبيض، حيث جلست قراطيس بين الجثتين البائستين؛ استقبلت الأميرة ضيوفها بأدبٍ جم، وعند انتهاء العشاء، أخذت تنهل من علمهم ما أرادت. وبعد أن علمت منهم كلَّ ما ترغب في اكتشافه، كانت نيتها أن تنطلق فورًا في رحلتها، ولكن الأمتان اللتان شكلتا ارتباطات عاطفية مع الأرواح ألحّتا عليها بأن تنتظر على الأقل حتى بزوغ الفجر. لكن قراطيس والتي ترفض الراحةَ والكسل رفضت طلبهما على الفور، وركبت البوفاكي وأمرتهما أن يرتحلَا معها فورًا.

استمرت في رحلتها لمدة أربعِ ليالٍ دون أن تلتفت يمينًا أو يسارًا. في اليوم

الخامس، عبرت الجبال والغابات المحترقة، ووصلت في اليوم السادس أمام الستائر الجميلة التي تخفي عن جميع الأعين تصرفاتِ ابنها الشهوانية.

كان الوقت فجرًا، وكان الحراس نائمين يُصدرون شخيرًا، عندما استيقظوا ذُهلوا من صوت ضربات قدم البوفاكي. تخيلوا أن مجموعة من الأشباح تصعدُ من الهاوية وتقترب منهم، ودون تفكير هربوا جميعًا. كان الواثق في تلك اللحظة مع نور الصباح في الحمام، يستمع إلى القصص ويضحكُ على بابابالوك الذي يرويها؛ ولكن لم يمضِ لحظة حتى وصلته صيحةُ حراسه، فاندفع من الماء مثل سمكة، وسارع بالخروج إلى العراء أمام قراطيس التي كانت تتقدم مع خدمها على البوفاكي، واخترقت مظلات القماش وحجاب الخيمة.

عند هذا الظهور المفاجئ، ظنَّت نور الصباح - والتي كان بداخلها شيء من الندم - أنَّ لحظة الانتقام السماوي قد حانت، واحتضنت الخليفةَ بينما كانت تشعر بخوف رهيب.

ما زالت قراطيس جالسةً على البوفاكي، تكاد تنفجرُ من الغضب، وعندَ رؤية المشهد الذي ظهرَ أمام بصرها العفيف؛ نطقت بصوت عالٍ خالٍ من الرحمة:

- أيها الوحش البالي، ماذا يعني كلُّ هذا الذي تفعله لتخدعني؟ ألستَ تخجل أن تظهر أمامي وأنت تمسك بخضر هذه البالية، بدلًا من السيفان الذين هم لسلاطين ما قبل آدم؟ أهلًا بك مع هذه العاهرة البالية! هل من أجلها خرقت شروطَ مخطوطة الهندي؟ هل ضيَّعت على هذه اللعوب الفانية أوقاتك الثمينة؟ أهذه هي ثمرةُ المعرفة التي علَّمتك إياها؟ أهذه هي نهاية رحلتك؟ انتزغ نفسك من ذراعي هذه الساذجة الصغيرة، وأغرقها في الماء أمامي، واتَّبع توجيهاتي على الفور.

في نشوةِ غضبه الأولى، قررَ الواثق أن يحوّل البوفاكي إلى هيكل عظمي، وأن يحشو جلودَ قراطيس وأمتيها. لكن ذكر الهندي وقصر إصطخر والسيوف والطلاسم التي تجمَّعت في خياله معًا مثل ومضة البرق؛ جعلته أكثر اعتدالًا، وقال لوالدته بلباقة، ولكن بصوت حاسم:

- يا سيدتي الحازمة. سأطاع أوامرك، ولكنني لن أُغرق نور الصباح؛ إنها أفضل عندي من كل شيء، وهي مغرمة جدًا بالياقوت، خاصّة ياقوتة جيامشيد، الذي وعدتْ أن تمنح لها؛ لذا يجب أن تذهب معنا، فأنا أعتزمُ المكوث معها تحت قباب سليمان. الآن لا يمكنني النوم بدونها.

فكّرت قراطيس قليلًا ثم أجابت:

- ليكنْ ما أردت.

وفي الوقت نفسه، نزلت عن ظهر البوفاكي وسلّمته للأمَتين.

ما زالت نور الصباح ممسكةً بيد الخليفة حتى الآن، ولكنها بدأت تستعيد شجاعتها، وقالت بلهجة حانية للخليفة:

- يا سيدي يا مليكَ روحي. سأتبعك إذا كنت ترغب في ذلك، إلى ما وراء جبل قاف(30) في أرض العفاريت. ولن أتردّد في التسلق إلى بيت السيمُرغ، الذي هو باستثناء هذه السيدة الواقفة أمامنا، أكثرُ المخلوقات المخيفة.

Telegram:@mbooks90

نظرتْ قراطيس لنور الصباح وقالت:

- يبدو أن لدينا هنا فتاة تمتلك الشجاعةَ والعلم على حد سواء.

وبالفعل، كانت نور الصباح تمتلك كلا الأمرين، لكن على الرغم من قوتها لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر وجه ابن عمّها غولشنروز الجميل والأيام الرائعة الحنون التي قضتها معه؛ حتى إنها ذرفت من عيونها الدموع، لاحظتها قراطيس ومن دون قصد تنهّدت وقالت بصوت خافت:

- ترى ماذا حدثَ لك يا ابن عمي العزيز؟

عندما سمع الواثقُ هذا التعبير، عقد حاجبيه في استغراب، وسألته قراطيس عن سبب هذا التعبير.

قال الخليفة:

- إنها حزينة على فتى صغير ذي جسد أنثوي، يحبها.

ردّت قراطيس والشرزُ ينطلق من عينيها:

- وأين هو هذا الفتى الآن. لا بدّ أن أتعرفَ على هذا الصبي الجميل.

أضافت وهي تخفض صوتَها وتقترب من الخليفة مبتعدةً عن نور الصباح:

- أنوي قبل أن أغادر أن أستعيدَ رضا الهندي؛ فلا شيء يعجبه أكثرَ من قلب صبي رقيق، ينبضُ بأول نبضة من الحب.

أمرَ الواثق بابابالوك بجمع النساء وحاجيتهن الأخرى، وتهيئة قواته ليكونوا مستعدّين للرحيل في غضون ثلاثة أيام. بينما انسحبث قراطيس للنوم وحدَها في الخيمة، حيث أسرّها الهندي برؤى مشجّعة. ولكن بعد استيقاظها، وجدث نيركس وكافور عند قدميها، حيث أخبرتاها أنهما بعد أن قادتا البوفاكي إلى حافة بحيرة ليتناول بعض الطعام، اكتشفا أسماكًا زرقاء من نفس النوع الموجود في الخزان في قمة البرج.

اندهشت قراطيس، وظهر على ملامحها فرحٌ شديد، وأردفت:

- فلنذهب لجلبهم؛ فهذه الأسماك بلا شك بعد إلقاء بعض التعاويذ عليها من نوعٍ يمكنني أن أستنطقها لتخبرني بمكان هذا الفتى الصغير الذي أنوي أن أضحي به.

بعدما قالت ذلك، انطلقث على الفور مع أمَتيها إلى هناك، فإنها نادرًا ما تضيع الوقت في تنفيذ مشروع كهذا، وسرعان ما وصلت وأمَتاها إلى البحيرة، حيث قُمنَ بعد حرق العقاقير السحرية التي يحملونها دائمًا بتجريد أنفسهنّ من الملابس وأصبحن عارياتٍ كما ولدتهن أمهاتهنّ ودخلن الماء حتى أذنيهن، وكانت نيركس وكافور تمددان مشاعلَ النار حولهن، وقراطيس تلقي تعويذاتِها الوحشية. وفجأة أخرجت الأسماك رؤوسها من الماء، وتموّجت المياه بعنف بفعل تمايل ذيولها، وبعد أن شعروا بقوة السحر تحتجزهم، فتحوا أفواههم وقالوا:

- نحن ملك لك من خياشيمنا إلى آخر ذيولنا، ماذا ترغبن في معرفته؟

- أيتها الأسماك، أستحلفُكم بزعانفكم اللامعة، قولوا لي أين غولشنروز الآن؟

ردَّ السرب بصوت واحد:

- هناك وراء الصخرة الكبيرة. هل هذه الإجابة كافية لك؟ فنحن لا نستمتع بأن نفتح أفواهنا طويلًا.

ردّت الأميرة:

- أعلم أنكم لا تحبون المحادثاتِ الطويلة، وعلى الرغم من أن لديَّ أسئلة أخرى أود أن أطرحها سأترككم ترتاحون الآن.

وبعدما نطقتِ الأميرة آخر كلامها، هدأتِ المياه واختفت الأسماك فورًا.

انتقلت قراطيس التي كانت مزهوَّة بأدائها وتعاويذها بسرعة إلى فوق الصخرة ووجدت غولشنروز الرقيق نائمًا تحت مظلة، بينما كان هناك قزمان يراقبانه من جانب، ويؤديان صلواتهما المعتادة من جانب آخر. كان لهذين القزمين الصغيرين قدرة على التنبؤ بقدوم أعداء المسلمين الصالحين؛ لذا توقعًا وصول قراطيس، التي توقفت فجأة وقالت:

- كم هو رائع وبريء وهو ينام هذه النومة، وكم هي شاحبة ومرهقة نفسه. إنه بالضبط الفتى الذي أتمناه.

قاطع القزمان هذا الخطابَ الشخصي السعيد عن طريق القفز عليها فورًا وخدش وجهها بكل حماسهما. ولكن نيركس وكافور، سارعتا لمساعدة سيدتهما؛ قامتا بطعن القزمين بقوة، حتى فارقًا الحياة، وهما يتوسَّلان إلى الله أن ينزل عليهما أشدَّ العقاب وعلى هذه المرأة الشريرة وكل من يساعدها.

بسبب الضجيج الذي تسبب فيه هذا الصراع الغريب في الوادي، استيقظ غولشنروز وهو مرتبكٌ من الخوف، وقفز بسرعة على شجرة تينٍ قديمة تنتصب على جانب الصخور؛ ثمَّ صعد إلى قمتها. وعندما رأى ما يحدث ركض لمدة ساعتين دون أن يلتفت للوراء. ثمَّ تعبَ فسقط في حالة مشابهة للموت في ذراعي جنيٍّ صالح

عجوز، الذي كان حبه لصحبة الأطفال يدفعه لحمايتهم، وفي ذلك الوقت أثناء جولته المعتادة في الهواء صادف الجني الطيب الذي كان يحمي الأطفال غولشنروز. وهو الجني الذي أنقذ الخمسين طفلًا الذين قذفَهم الواثق في هوة الهندي، وقد أقام الجنيُ لهؤلاء الأطفال أعشاشًا أعلى من السحاب، واستقر أيضًا بنفسه هناك في عش أكبر حجمًا من بقية الأعشاش.

حُميت هذه الأعشاش الآمنة من التعاويذ والعفاريت بواسطة رفرفة أعلام، كُتب عليها بحروف من الذهب - والتي توهَّجت كالبرق - أسماء الله والنبي. ظنّ غولشنروز في هذا المكان أنه في مساكن السلام الأبدية. وقبل التهاني التي تلقّاها من أصدقائه الصغار، الذين اجتمعوا جميعًا في عشِّ الجني العظيم؛ شعر في تناغم مع روحه. حيث كان بعيدًا عن هموم الأرض وتطفّل النساء، ووحشية الخصيان. في هذا المجتمع السلمي، انسابت أيامه وشهوره وسنواته، ولم يكن أقلّ سعادة من بقية رفاقه؛ حيث منح الجنيُ لتلاميذه هبةَ الطفولة الأبدية بدلًا من أن يُرهقهم بالثروات الزائلة والعلوم الباطلة لهذا العالم الفج.

لم تعتذ قراطيس على فقدان فريستها؛ لذا أطلقت ألفَ لعنة على أمَتيها لعدم الإمساك بهذا الفتى بدلًا من التسلية بقتل الأقزام بهذه الطريقة البشعة التي لا يمكنهم الاستفادة منها. عادت إلى الوادي وهي تتذمر، وعندما اكتشفت أنَّ ابنها لم ينهض بعدُ من بين ذراعي نور الصباح، أفرغت سوءَ مزاجها على كليهما. لكن فكرة المغادرة في اليوم التالي إلى إصطخر، وتكوين صداقة مع إبليس نفسه بفضل العلاقات الجيدة مع الهندي؛ عزّت حزنها في النهاية.

في المساء - وأثناء محادثة قراطيس مع ديلارا، التي أصبحت جزءًا من المخطط بفضل مكيدتها، والتي كان ذوقها يشبه ذوق قراطيس - جاء بابابالوك ليخبرها بالآتي:

- السماء في اتجاه سامراء تظهر بلونٍ أحمر ناري، ويبدو أنها تنذر بكارثة مروعة.

فورًا، لجأت إلى معدّاتها الفلكية وأدواتها السحرية، وقامت بقياس ارتفاع الكواكب، واكتشفت من خلال حساباتها، إحباطها الكبير. ثورة قوية قد اندلعت في

سامراء؛ حيث استغلَّ المتوكل(31) الكره العميق الذي كان متجذرًا ضدَّ شقيقه الواثق وأثارَ اضطرابات بين الجماهير، واستولى على القصر، وحاصر البرجَ العظيم، الذي انتقل إليه موركاناباد مع عددٍ قليل من الأشخاص الذين ظلوا أوفياء للواثق.

صاحت:

- أفقدُ برجي! خدمي البكم، إمائي، أجساد المومياوات، والأسوأ من ذلك، مختبري الذي قضيت فيه ليالٍ كثيرة دون معرفة ما إذا كان ابني المغفّل سيُكمل مغامرته أم لا. لا... لن أكون امرأة ساذجة، سأذهب على الفور لدعم موركاناباد. بفضل سِحري الرهيب، ستمطر السحب حباتِ البرد على وجوه المهاجمين، وستتعرَّض رؤوسهم لأسهمٍ من الحديد المنصهر. سأحفر من تحتهم حفرًا مليئة بالثعابين والعقارب، وسنرى قوة مقاومتهم أمام مثل هذه المعجزات.

أسرعت إلى ابنها الذي كان يتناول طعامَه بسَكينة مع نور الصباح في خيمته الرائعة ذات اللون القرمزي الزهري.

صاحت:

- لولا وجودي لكنت الآن مرغمًا على تناول الخبز الرخيص فقط. أقسم أنَّ أتباعَك تخلّوا عن الولاء الذي أقسموه لك. شقيقُك المتوكل يحكم الآن على مملكتك، ولولا وجودُ بعض الصامدين في البرج، لكان من الصعب إقناعُه بالتنحي بعد ذلك. ولكن لكيلا يضيع الوقت سأضيف فقط كلمات واضحة حازمة: اطوِ الخيمةَ هذه الليلة، وانطلق. واحذر أن تتسكع طويلًا في الطريق.

دارث حوله ومن جديد أكملت:

- على الرغم من أنك خرقت شروطَ المخطوط، ما يزال لديّ بعض الأمل؛ فلا يمكن إنكار أنك قد خرقت بشكلٍ غريب قوانينَ الضيافة من خلال إغواء ابنة الأمير بعد أن تناولت خبزه وملحه. مثل هذا السلوك لا يمكن إلا أن يكون مُرضيًا للهندي. وإذا استطعتَ أن تميز مسيرتك بجريمة إضافية، فالأمور ستسير بشكلٍ جيد، وستدخل قصر سليمان بترفٍّ.

لملمتْ أطرافَ ملابسها وقالت:

- وداعًا. فالبوفاكي وإمائيَ في انتظاري.

لم يكنْ لدى الخليفة أيُّ شيء يقدمه كردٍّ على هذا الكلام. تمنَّى لأمه رحلة موفقة، واستمرَّ في تناول العشاء حتى انتهى منه. في منتصف الليل، سُمع في المعسكر صوتُ هدير البوق وآلات عسكرية أخرى. وكان صوت الطبول مرتفعًا جدًّا ليغطي على صوت البكاء العالي للأمير فخر الدين وأتباعه الذين بفضل البكاء المفرط استنفدوا رطوبة أعينهم حتى جفَّت في محاجرها. رافقت نور الصباح الخليفةَ في السرير الملكي، وكانت حزينة هي الأخرى مع سماع دوي الموسيقى والحركة، ولكن تخيّلها البذخ الذي سيحيط بها قريبًا كان كفيلًا بإرجاع البسمة على شفتيها مرة أخرى. كانت النساء الأخريات مغمورات بالحزن، يتمايلن بحزنٍ في هوادجهن، بينما كانت ديلارا تعزي نفسَها بتوقع فرحة الاحتفال بطقوس النار على شرفات إصطخر الفخمة.

في غضون أربعة أيام، وصلوا إلى وادي ركن آباد الشاسع. كان موسم الربيع في كامل رونقه، وأغصان أشجار اللوز كانت في ذروة زهرها، ورَسمت أشكالًا على السماء الزرقاء الصافية. كانت الأرض مزينة بزهور السوسن والنرجس، وتنبعث منها رائحةٌ تملأ الروحَ بالراحة الإلهية. كان الصوفيون والفلاحون يعيشون هناك على ضفاف البحيرة وكانت بيوتهم وأماكنُ تعبدهم منثورةً حولها. هؤلاء الفلاحون كانوا يزرعون حدائق صغيرة مليئة بالزهور والفواكه، وخاصَّة البطيخ الأصفر ذو الطعم الرائع الذي تفخر به بلادُ فارس. وأحيانًا كانوا ينتشرون في المروج ويستمتعون بتغذيةِ طيور الطاووس الأبيض كلون الثلج والسلاحف الزرقاء كالياقوت. بهذه الطريقة كانوا يشغلون أنفسهم عندما بدأت مواكبُ الاحتفال الملكي في التعميم قائلة:

- يا سكان ركن آباد. اسجدوا على حافة مياهكم النقية وقدّموا شكركم للسماء التي تظهر لكم شعاعًا من مجدها، فإن الخليفة أمير المؤمنين قادم.

امتلأ الصوفيون الأبرياءُ بالحماسة المقدسة، وتسابقوا لإشعال الشموع في أماكن تعبدهم وفتح كتبهم المقدسة على مكاتبهم الآبنوسية، ثمَّ خرجوا لاستقبال الخليفة بسلال من عسل النحل والتمر والبطيخ. ولكن، بينما كانوا يتقدَّمون في موكب رسمي وبخطوات متناسقة، تجولتِ الخيول والجمال والحراس بلا رادع بين زهور السوسن والنرجس والزهور الأخرى وأحدثوا خرابًا فظيعًا بينها. لم يتمكنِ الصوفيون من إخفاء نظرة شفقة من عين على الدَّمار الذي يحدث حولهم، بينما كانتِ العين الأخرى مشدودةً نحو الخليفة والسماء. كانت نور الصباح تطالب الواثقَ بالتوقف لأنها سحرتْ بالمناظر الطبيعية لمكان يعيدُ إلى ذاكرتها الأماكن الهادئة الساحرة التي قضت فيها طفولتها، ولكنه مشتبهٌ في أنَّ كل أماكن التعبد التي حوله قد يعتبرها الهندي مسكنًا، فأمر حراسه بتسويتها جميعها مع الأرض. ظلَّ الصوفيون ثابتين برعبٍ أمام هذا الأمر الوحشي، ولم يتملكوا أنفسهم حتى أجهشوا في البكاء مما رأوا، لكن البكاء كان مزعجًا جدًّا للخليفة، مما جعله يأمر خصيانه بركْلهم بعيدًا عن وجهه. ثم نزل من السرير المحمول مع نور الصباح؛ تجوَّلوا سويًّا في المروج واستمتعوا بعَبق الزهور وتبادلوا المزاح مع بعضهما البعض. ولكنِ الفلاحون الذين كانوا مسلمين مخلصين ظنوا أنه من واجبهم أن يرحلوا انتقامًا لإهانة سادتهم الصوفية الأجلاء، اجتمعوا بجديَّة ورحلوا من المكان تاركين الخليفة ومن معه.

قامَ بابابالوك بدور موزِّع الطعام والمسئول عن تجهيزه، فجهز عشراتِ السلاحف والطواويس للذبح، فشوى بعضها، وقلى بعضها في الزيت. وفي حين كانوا يتناولون الطعامَ ويضحكون ويحتفلون بكل حرية أثناء الوليمة السخية، وصل الفقهاء والشيوخُ والقضاة والأئمة من شيراز، والذين يبدو أنهم لم يلتقوا بالصوفية، وقادوا بلطفٍ - بألجمة مكتوب عليه آيات من القرآن - قافلةً من الحمير المحملة بأجود الفواكه التي يمكن أن تفخر بها البلاد. بعد تقديم عروضهم للخليفة، طلبوا منه أن يشرِّف مدينتهم ومساجدهم بحضوره.

قال الواثق في ثقة وكبرياء:

- أقبَل هداياكم. لكن لن أتمكنَ من دخول المدينة حتى لا تؤخروني عن مبتغاي.

اتركوني في سلام، فأنا لا أرغبُ في مقاومة توسُلات الغير؛ انسحبوا، ولكن كونه ليس لائقًا بالنسبة لشخصيات شريفة مثلكم أن تعودوا سيرًا على الأقدام، وبما أنكم لا تبدون ركابًا ماهرين لحَميركم، سيربطكم خصياني على ظهور حميركم، على ألا تولونَ ظهوركم نحوي، فخصياني يفهمون آدبَ وقداسة الرحيل من حضرتي جيدًا.

في هذه الوفود كان هناك بعضُ الشيوخ الذين يعتقدون أن الواثق أحمق، ولم يترددوا في التعبير عن آرائهم فيما بينهم. ربَطهم باباباالوك بحبالٍ مزدوجة، ووضعَهم على الحمير، ثم أمر بضرب الحمير بكل قوة، فانطلقوا جميعًا بسرعةٍ رهيبة، يقفزون ويركلون ويتصادمون مع بعضهم بشكل يثير السخرية.

تنافَست نور الصباح والخليفة لمعرفة مَن سيستمتع أكثر بهذا المشهد المهين؛ انفجرَا بالضحك عندما شاهدا الرجال العجائز وحميرَهم يسقطون في النهر؛ كسرت ساقُ أحدهم، وتعرض كتفُ أحدهم للخلع، وتحطَّمت أسنان الثالث، وتعرض البقيةُ لأذى شديد.

وبعدَ يومين دون إزعاج من وفود جدد، وقد استغِل هذا الوقت لنهل أكثر الأوقات متعة للخليفة ونور الصباح، تواصلت البعثة، مارةً بمدينة شيراز نحو سهول واسعة، حيث كانت قممُ جبال إصطخر الظلامية مرئيةً على حافة الأفق.

أثناء مرورهم بهكذا منظر، لم يتمكنِ الخليفة ونور الصباح من كبت فرحهما؛ فقد قفزا من سريرهما المحمول إلى الأرض وانفجرَا في إظهار تعبيرات غريبة، أذهلت كلَّ مَن سمعها. سألا بعضَهما البعض قائلين:

- ألسنا نقترب من قصر الضوء الساطع(32)؟ أو مِن حدائق أجمل من حدائق شداد بن عاد(33)؟

قال الجنُّ الصالحون الذين لم يتخلوا عن رعاية الواثق رغم أفعاله:

- أيها المغروران، أنتما منغمسان في ظنون كاذبة، غير قادرين على فهم أحكام العلي الأعلى.

ثمّ توجهوا إلى محمدٍ في السماء السابعة، قائلين:

- يا نبيّ الرحمة، مدّ يديك الرحيمة نحو نائبك الذي على وشك الوقوع في الفخ الذي أعدّ له أعداؤه من الجن لتدميره؛ ينتظر الهندي الكافر وصولَه في القصر الرهيب الذي تحترق فيه النار، حيث إذا وضع قدمَه فيه مرّة واحدة، سيكون هلاكه لا مفر منه.

أجاب محمد بغضب:

- إنه مسئولٌ عن نفسه، حرٌّ في قراراته، ولكنّي أسمح لكم بمحاولة أخيرة، لمعرفة ما إذا كان بإمكانكم أن تحوّلوه عن الاندفاع نحو طريق هلاكه، أم سينفذ سهمُ قدره؟

أحدُ هؤلاء الجن المحسنين تجسّد على الفور على هيئة راعٍ، أشهر بتقواه من جميع الدراويش والصوفيين في المنطقة بأسرها. وضع نفسَه بالقرب من قطيع من الخراف البيضاء على سفح تلة، وبدأ يعزف على نايه ألحانًا مؤثرةً تذيب الأرواح، وتوقظ الندم، وتطرد كلّ أفكار الترف. عند سماع هذه الأصوات القوية، اختفت الشمس وراء سحابةٍ غامضة، وتحوّلت مياه بحيرتين صغيرتين - كانتا في الأصل أكثر وضوحًا من الكريستال - إلى لون الدم. كان هذا التجمعُ الرائع بأكمله منجذبًا بشكلٍ لا إرادي نحو منحدرِ تلك التلة؛ ووقفوا جميعًا بعيون خاضعة، يلوم كل شخصٍ نفسَه على الشّر الذي اقترفه. خفق قلبُ ديلارا، وأطلق رئيسُ الخصيان تنهيدة ندم وطلب العفو من النساء اللاتي كان يعذبهنّ كثيرًا من أجل إرضاء نفسه. شحب وجهَا الخليفة ونور الصباح، ونظرا إلى بعضهما بنظرات مرعبة، وانتقد كلٌّ منهما نفسه. الخليفة بألفِ جريمة سوداء، وألفِ مشروع طموح شرير. ونور الصباح بخراب أسرتِها وهلاكِ غولشنروز الرقيق. أقنعت نور الصباح نفسَها بأنها تسمع في الموسيقى الحانية آهاتِ والدها المحتضر، وسمعَ فيها الواثق نحيبَ الخمسين طفلًا الذين ضحى بهم للهندي. وسطَ هذه الآلام المعقدة، شعرا باندفاع نحو الراعي، الذي كان وجهه مثيرًا للتّبجيل بحيث شعر الواثقُ للمرة الأولى بالرهبة، بينما كانت نور الصباح تخفي وجهها بين يديها.

توقّفت الموسيقى، وقال الجنيّ الكريم مخاطبًا الخليفة:

- أيها الخليفة المخدوع، الذي أوكلتْ له العنايةُ الإلهية رعايةَ آلاف البشر المساكين. أهكذا تقوم بواجبك؟ إن جرائمَك اكتملت بالفعل، فلمَ تسارع الآن نحو عقابك؟ أتعلم أن خلفَ هذه الجبال إبليس وشياطينه الملعونة يمتلكون إمبراطوريتهم الجحيميّة؟ وبعد أن يغريك شبحُ خبيث فإنك تشرع في تسليم نفسك لهم. هذه اللحظة هي آخرُ فرصة لك لتتوب. اترك نيتك الشريرة؛ وارجع. أعذ نورَ الصباح إلى والدها الذي ما يزال لديه بضعُ أنفاس من الحياة، اهدمْ برجَك مع كل رجسه، اطرد قراطيس من مجالسك، كن عادلًا لرعاياك، احترمْ خلفاء النبي في ملكك، عوّض عن معاصيك الدينية بحياةٍ تصبح فيها قدوة؛ وبدلًا من إضاعةِ أيامك في الانغماس في المتع الجسدية اندم على جرائمك على قبور أسلافك. ها أنت ترى السحب التي تحجب الشمس. في اللحظة التي تستعيد فيها الشمس بريقها، إذا لم يتغير قلبك، ستكون لحظة الرَّحمة المخصصة لك انقضت إلى الأبد.

كان الواثق مضطربًا وخائفًا، وعلى وشك أن يسجدَ عند قدمي الراعي الذي أدرك أنه طبيعته تتفوق على طبيعة البشر، لكنْ كبرياؤه يسوسه، فرفع رأسَه بجرأة وألقى عليه نظرة غاضبة وبكبرياء قال:

- أيًا ما كنت، امتنعْ عن تحذيراتك غير المجدية؛ إما أنك تضلني، أو أنك مخدوع بنفسك. إذا كان ما فعلته جريمةً كما تدّعي فلن تبقى لي لحظة من الرحمة. لقد عبرت بحرًا من الدماء لأكتسبَ سلطة ستجعل من هُم مثالك يرتعدون، لا تظن أنني سأتراجع عندما أكون على بُعد خطوات من تحقيق مرادي، أو أنني سأتخلى عمَّن هي أعزُّ إليّ من حياتي ومِن رحمتك التي تدّعيها. لتظهر الشمس وتضيء طريقي. لا يهمّ إلى ما سينتهي كل هذا.

عندما نطقَ بهذه الكلمات التي جعلت حتى الجنيّ يرتجف، ألقى الواثق نفسَه في أحضان نور الصباح، وأمر بإجبار قافلته على العودة إلى الطريق.

لم يكن هناك صعوبة في طاعة هذه الأوامر لأنَّ الجاذبية التي تزامنت مع وجود الراعي توقفت. الشمس أشرقت بكلّ بريقها، واختفى الراعي بصرخة حزينة.

لكنّ الانطباع المؤلم لموسيقى الجني الراعي ما يزال حاضرًا في قلوب خدم الواثق. إنهم ينظرون إلى بعضهم البعض بتعجب، وعند اقتراب الليل، هربَ معظمهم، وبقيَ من هذه المجموعة العديدة رئيسُ الخصيان وبعضُ العبيد الوثنيين وديلارا وبعض النساء الأخريات اللواتي كنّ مثلها من بنات طائفة المجوس.

شعرَ الخليفة المتّقد بطموح السيطرة على الظلمات، بحرج كبير من هذا الهجران. فغضبه وقلقه منعاه من النوم، ولم يعسكر كما فعل في السابق؛ لأن نور الصباح - والتي كان حماسها يفوق حماسه - ألحّت عليه بالإسراع في مسيرته، وبذلت له نفسها لتشتت تفكيره. الآن تتخيل نفسها أقوى حتى من بلقيس، وتتصوّر في خيالها الجن يسجدون عند قدميها وهي تجلس على العرش. بهذه الطريقة، تقدموا في ضوء القمر، حتى وصلوا إلى الصخرتين العاليتين التي شكلتا نوعًا من بوابة نحو الوادي، وعند نهاية الوادي ترتفع أطلال إصطخر الضخمة. في الأعلى على الجبل، لمعت واجهاتُ القبور الملكية المختلفة، وزاد منظرها المرعب بظلال الليل. مروا من خلال قريتين شبه مهجورتين، والسكان الوحيدون المتبقون بها هم بعض الرجال العجائز الضعفاء الذين عند رؤية الخيول والعربات، سقطوا على ركبهم، وصرخوا:

- يا للسماء! ألم تكتفوا من الرعب الذي لحقَ بنا منذ أكثر من ستة أشهر. لقد هرب الرجال والنساء والأطفال من الرعب الناجم عن الأشباح والضوضاء أسفل الجبال، هرب شعبنا وتُركنا عرضة لأذى الأرواح الشريرة.

لم تكنْ هذه الشكاوى سوى وعيدٍ غير مجدٍ بالنسبة للخليفة، دهس أجساد هؤلاء الرجال العجائز المساكين، ووصل أخيرًا إلى سلم الرخام الأسود. هناك هبط من سريره ونور الصباح تمسك يده، وكلاهما بقلب ينبض فيه الخوف. نظرًا حولهما بعيون مفزعة، وانتظرا برعشة رعب تكاد تقطع أنفاسهما قدوم الهندي. لكنه لم يكن أعلن بعدُ عن ظهوره.

ساد هدوءٌ شبيه بالموت على الجبل وفي محيطه. اتسعت إضاءة القمر إلى مساحة شاسعة، حيث توسعت ظلال الأعمدة الشاهقة، التي تمتد من السلم إلى السحاب. الأبراج المظلمة التي لا يُمكن حصر عددها، لم تكن مغطاة بأي سقف،

وتيجانها بتصميم معماري غير معروف في سجلات الأرض من قبل. كانت ملجأ لطيور الظلام التي هربت مزمجرةً عندما شعرت بقرب هؤلاء الزوار.

تضرّع رئيس الخصيان، الذي ارتجف خوفًا إلى الواثق أن يشعل النار.

أجاب الواثق:

- ليس هناك وقت للتفكير في مثل هذه الأمور الصغيرة؛ ابق حيث أنت وانتظر أوامري.

بعد أن تكلم هكذا، مدّ يده لنور الصباح، وصعد درجات سلم ضخم ووصل إلى السطح المغطى بمربعات من الرخام، الذي يشبه سطحَ الماء الأملس، حيث لا يجرؤ أي نبات على النمو. على اليمين ارتفعت الأبراج المرتبة أمام أطلال قصر ضخم، كانت جدرانه منقوشة بأشكال مختلفة. وفي المقدمة، يبرز أربعة تماثيل، نمرين وشيردالين(34)، وعلى الرغم من أنهم مصنوعون من الحجر إلا أنهم أثاروا مشاعر الرعب كأنهم ينبضون بالحياة. بالقرب من تلك المخلوقات، تميز بسبب سطوع القمر الذي ينير المكان بشكل كامل، أحرفٌ شبيهة بتلك الموجودة على سيوف الهندي، والتي تتمتعُ بنفس القدرة على التغيير في كل لحظة. وبعد أن دارت تتغير لبعض الوقت، استقرت أخيرًا على حروف عربية، وأعطت الخليفة التعليمات التالية:

- أيها الواثق. لقد خالفت شروط المخطوطة، وتستحق أن تعود إلى حيث جئت. ولكن، لأجل صحبتك، وكمكافأة لما قمت به لتحقيق ما أردت، سمح إبليس بفتح بوابة قصره، وسيستقبلك في قصر النار السفلى لتكون واحدًا من عابديه.

بالكاد، انتهى الواثق من قراءة هذه الكلمات، حتى بدأ الجبل الذي بني المكان عليه يهتز، وكانت الأبراج على وشك السقوط بالكامل. انشقّت الصخرة وكشفت عن سلمٍ مصقول من الرخام يبدو وكأنه يقترب من هاوية. وعلى كلّ درجةٍ من السلم يوجد مشعلان كبيران، يشبهان تلك التي رأتها نور الصباح في رؤيتها، والبخار المشبع بالكافور الصاعد منها كوّن سحابة تحت القبة المظلمة.

هذا المنظر، بدلًا من أن يخيفها، منح شجاعة جديدة لابنة فخر الدين. دون أن

تلقي وداعًا حتى للقمر والسماء، تخلّت من دون تردد عن الجو النقي لتغوص في هذه الأبخرة الجهنمية. كانت مشية هذين الفاجرين طاغية ومتجبرة. مع هبوطهم بواسطة ضوء المشاعل، تبادلا النظراتِ المعجبة ببعضهم البعض، وظهر كلاهما بما يكفي من السطوع ليروا أنفسهم ككائناتٍ روحية غير بشرية. الشيء الوحيد الذي حيرهم هو عدم وصولهم إلى قاع السلم. عندما عجلوا هبوطَهم بحماسة مشتعلة، شعروا بخطواتهم تتسارع إلى درجة أنهم بدا وكأنهم لا يسيرون، بل يسقطون من هاوية. لكن تقدمهم أعاقَه في النهاية بوابة واسعة مصنوعة من خشب الأبنوس، تعرف عليها الخليفة دون صعوبة؛ وهنا كان الهندي ينتظرهم والمفتاح في يده.

قال الهندي بابتسامة شاحبة:

- أهلًا بكما، رغم أنف محمد وجميع أتباعه. سأسمحُ لكما الآن بالدخول إلى ذلك القصر الذي استحقيتم المكانة العالية فيه.

بينما كان ينطق هذه الكلمات، لمس القفلَ المصقول بمفتاحه، وفتحت الأبواب فجأة بضجيج أعلى من صوت ارتطام الجبال، ثمَّ أغلقت فجأة بمجرد دخولهما.

ظلَّ الخليفة ونور الصباح يتأملان بعضهما البعض بدهشة، ليجدا أنفسهما في مكان بدَا في البداية وكأنه مساحة لا تنتهي، بالرغم من أنه مغطى بسقفٍ مقبب. ولكن بمرور الوقت، تعودت أعينهما على عظمة الأشياء المحيطة بهما، وتوسّعت رؤيتهما إلى الأشياء في المسافة البعيدة، حيث اكتشفا صفوفًا من الأعمدة والأروقة، التي تنحسر تدريجيًا حتى تنتهي في نقطة ساطعة مثل الشمس عندما تطلق أشعتها الأخيرة وتغوص في المحيط. كانت الأرضية منثورة بغبار الذهب والزعفران، وكانت تنبعث منها رائحةٌ نافذة تكاد تغمرهما.

استمرّا في المشي ولاحظا أعدادًا لا تنتهي من المبخرات التي تحتوي على العود والعنبر والتي كانت تحترق باستمرار. وكانت بين الأعمدة المختلفة مائدةٌ موضوعة تحمل تجهيزات غنية من الطعام وأنواع مختلفة من النبيذ الذي يتلألأ في أوانٍ من الكريستال. كانت حشودٌ من الجن والأرواح الأخرى ترقص في طابور، على إيقاع الموسيقى التي تصدر من الأسفل.

في وسط هذه القاعة الهائلة، كان هناك جموعٌ كبيرة من البشر تمرّ بلا توقف، حيث وضع كلُّ فرد منهم يده اليمنى على قلبه دون أن يلتفت إلى أي شيء حوله. كان لديهم جميعًا وجهٌ شاحب كأنه ميت، وعيونهم عميقة مغمورة في محجرها تشبه ذلك الضباب الفسفوري الذي يلمع في الليل في أماكن الدفن. بعضهم كان يتجول ببطء، مستغرقًا في تأملٍ عميق. وبعضهم كان يصرخ بألم ويجري بجنون هستيري، مثل نمور جرحتها السهامُ المسمومة. بينما البعض الآخر كان يطحن أسنانَه في غضب ويتلوى بشكل غريب، كان الأمر أكثر جنونًا من أي شيء شاهدوه في حياتهما. هؤلاء كانوا يتجنّبون بعضهم البعض، وعلى الرغم من وجود الجموع التي لا يمكن عدها، تجول كل فرد بطريقة عشوائيةٍ غير مبالٍ بالباقين، كما لو كان وحيدًا في صحراء لم تدسّها قدم.

كان الواثق ونور الصباح مصدومين من الرعب الذي أصابهما، سألَا الهندي عن معنى هذه الظواهر وسبب عدم أبعاد الأشباح المتجولة أيديهم عن قلوبهم.

أجابَ الهندي:

- لا تربكا أنفسَكما، فستتعرفان قريبًا على كلّ شيء. لنسرع ونقدمكما لإبليس.

واصلَا مسيرَهما خلال الجموع، وعلى الرغم من ثقتهما في البداية، إلا إنهما لم يكونا هادئين بما يكفي ليفحصا بتركيز مناظرَ القاعات والأزوقة المختلفة التي تنفتحُ على اليمين واليسار، والتي كانت مضاءةً بالمشاعل والمجامر المشتعلة، حيث ارتفع اللهبُ فتشكل على هيئة أهرامات حتى وسط القبة. وأخيرًا وصلا إلى مكان حيث انسدلت ستائر طويلة مزخرفةٌ باللون القرمزي ومرصّعة بالذهب من كل مكان بشكل مربك. هنا لم يعد يُسمع صوتُ الاحتفالات والرقصات، وكان الضوء الذي يتلألأ يأتي من بعيد.

بعدَ مرور بعض الوقت، لاحظ الواثق ونور الصباح بريقًا يضيء من خلال الستائر، ودخلا خيمة شاسعة مبطّنة بجلود النمور. كان هناك عددٌ لا يحصى من الشيوخ ذوي اللحى الطويلة، وعفاريت مرتدين دروعًا كاملة، وقد سجدوا أمام صعود مرتفع

شاهق، وعلى قمته كرة من النار، جلس عليها إبليس المهيب. كان يبدو كرجل في عمر الشباب، ولكن ملامحه النبيلة والوسيمة بدت وكأنها شوّهت من أثر أبخرة خبيثة. في عينيه الكبيرتين يظهر الكبر واليأس معًا، وشعره الطويل ما يزال محتفظًا ببعض التّشابه مع شعر ملاك النور(35). في يده التي يتفجر منها الرعد، تأرجح الصولجان الحديدي الذي جعل الوحشَ أوران آباد(36) والعفاريت وكلّ قوى الظلام يرتجفون. وعندما رآه الخليفة غرقَ قلبه في رعب مُذهل، وسقط للمرّة الأولى على وجهه ساجدًا. أما نور الصباح، فبالرغم من الهلع الشديد الذي أصابها لم تستطع أن تخفي إعجابها بشخص إبليس؛ لأنها كانت تتوقع أن ترى عملاقًا ضخمًا. وبصوتٍ أكثر رقّة مما يمكن تصوره، لكنه ينقل إلى الروح أعمقَ حزن، قال إبليس:

- أيها المخلوقان المنحوتان من الطين، أقبلكم في مملكتي؛ فأنتم الآن من ضمنِ عبيدي. استمتعوا بكل ما يقدمُه هذا القصر من كنوز السلاطين السابقين لآدم، وسيوفهم العجيبة، وتلك التمائم التي تجبر الجنَّ على فتح الأبعاد السفلية لجبل قاف، والذي يتّصل بهذا المكان. هنا مهمَا كان فضولكم قويًّا فسيشبع، وستجدونَ ما يكفي لإرضائه. ستمتلكون الامتيازَ الحصري لدخول قلعة أهرمان(37) وقاعات أرجينك(38)، حيث تصوَّر جميع المخلوقات ذات الذكاء الحاد والحيوانات المختلفة التي عاشت على الأرض قبل خلق ذلك الكائن الحقير الذي تسمونه أبو البشر.

شعرَ الواثق ونور الصباح أنهما انتعشا، وشعرا بالتشجيع بعد هذه الخطبة الآثرة، وبالرغم من الارتباك الذي سيطرَ عليهما، لكنهما قالَا بحماس للهندي:

- خذنا فورًا إلى المكان الذي يحتوي على تلك التمائم الثمينة.

أجابَ الهندي بابتسامته الخبيثة:

- تعاليَا، وامتلكا كلّ ما وعد به سيدي، وأكثر منه.

ثمّ قادهما إلى ممرٍّ طويل يجاور الخِباء، يتقدمهما بخطوات سريعة، ويتبعه تلميذاه بأقصى سرعة. وصلوا أخيرًا إلى قاعة واسعة مغطاة بقبّة شاهقة، حيث ظهرت خمسون بوابة من البرونز، مؤمّنة بخمسين قفلًا من الحديد. سادت أجواءُ

حزن مُرعبة في المكان بأكمله، هناك على سريرين مصنوعين من خشب الأرز النقي، اضطجعت هياكل عظمية لملوك ما قبل آدم، الذين كانوا ملوكًا على الأرض بأكملها؛ لا يزال لديهم قدرٌ من الحياة ليدركوا حالتهم المؤسفة، عيونهم ما تزال تتحرك بحزن، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بنظرات من اليأس العميق، يحتفظ كل منهم بيده اليمنى ثابتةً على قلبه، وعند قدمهم محفورٌ أحداث فترة حكم كلّ واحد منهم، سلطتهم وإنجازاتهم وجرائمهم؛ سليمان بن رعد، سليمان بن داكي، وسليمان بن جيان بن جيان، الذين بعد أن امتلكوا الجن في الكهوف المظلمة لجبل قاف، أصبحوا مُتجرئين لدرجة الشك في القوى العليا. كلُّ هؤلاء حافظوا على مكانة عظيمة، رغم أنها لا يمكن مقارنتها بمساحة مكانة سليمان بن داود.

كان هذا الملك الشهير بحكمتِه في أعلى ارتفاع، موضوعًا مباشرة تحت القبة؛ بدَا أنه يتمتع بحيوية أكثر من بقية الملوك، على الرغم من أنه من وقتٍ لآخر كان يتنهَّد بتنهدات عميقة، ويضع يدَه اليمنى على قلبه كما يفعل رفاقه؛ إلا إن ملامحَ وجهه أكثر هدوءًا، ويبدو وكأنه يستمع إلى صوت الشلال الهائل، الذي يظهر جزئيًا من خلال شبك البوابات. هذا هو الصوتُ الوحيد الذي يقطع صمت هذه الأماكن المحزنة.

أزيلت أغطية عن جرار سرية، وقال الهندي للواثق:

- استفذ من التمائم التي ستكسر كلَّ هذه الأبواب المصنوعة من البرونز، ولن تجعلك مسيطرًا على الكنوز الموجودة بداخلها فحسب، بل ستجعلك أيضًا سيدًا للأرواح التي تحرسها.

اقتربَ الخليفة الذي أحدثت هذه المشاهد المرعبة ارتباكًا بداخله، من الجرار بخطوات مترددة، وكان على وشك الانهيار من الرعب عندما سمع أنين الملك سليمان. وبينما يتقدم، همست شفاه النبي الشاحبة ينطق بهذه الكلمات:

- في عمري الماضي، جلست على عرش رائع، وكان على يميني اثنا عشَر ألف مقعدٍ من الذهب، حيث استمع الرهبان والصالحون إلى تعاليمي. وعلى يساري، كان الحكماء والعلماء على مقاعد من الفضة، حاضرين في جميع قراراتي. أثناء ما كنت أبذل العدلَ لجموعٍ لا تعدُّ ولا تحصى، كانت طيور السماء تحلق فوقي

كحجاب يَحميني من أشعة الشمس. شعبي كان سعيدًا، وقصري يرتفع إلى السحاب. قمت ببناء معبد للعلي الأعلى، الذي كان أعجوبةَ الكون. لكنني سمحت لنفسي بأن أستدرَج من قبَل النساء وفضول لا يمكن احتواؤه للأشياء الدنيوية. استمعتُ إلى مشورة أهرمان وابنة فرعون، وعبدة النار وجنود السماء. تخليت عن المدينة المقدّسة، وأمرت الجنّ ببناء قصر إصطخر العجيب وأبراجه الشاهقة، حيث كان كلُّ برج مكرسًا لنجم. هناك، لفترة من الزمن، استمتعت وأنا أنظر لنفسي في ذروةِ المجد والمتعة. لم أسيطز على البشر فحسب، بل كلّ الكائنات الخارقة أيضًا خضعت لإرادتي. بدأت أفكر، كما فكرَ هؤلاء الملوك البائسون المحيطون بي أنّ انتقام الله لن يأتي. فجأة، انفجر الرعدُ ودمرت أبنيتي ووجدتُّ نفسي هنا. ومع ذلك، لن أبقى هنا مثل الآخرين محرومًا تمامًا من الأمل؛ لأنّ ملاك النور أخبرني أنه نظرًا لتقواي في شبابي المبكر فستنتهي محنتي عندما يتوقف هذا الشلالُ عن التدفق. وحتى ذلك الحين سأعاني من عذابات لا يمكن وصفها. نار لا ترحم، تأكل قلبي.

بعدَ أن ألقى سليمان هذا الصرخة، رفع يديه نحوَ السماء كإشارة للتضرع، واستطاع الخليفة أن يرى من خلال صدره الشفاف كالكريستال قلبَه الملتهب بالنيران. عند رؤيتهم مشهدًا مثيرًا للرعب كهذا المشهد سقطت نورُ الصباح كأنها تمثالٌ من حجر في ذراعي الواثق، الذي صاح بنحيب متعسّر:

أيها الهندي، إلى أين أحضرتَنا؟ اسمح لنا بالرحيل، وسأتنازل عن كلّ ما وعدتنا به. يا محمد، أليس هناك أي رحمة بقيت؟

أجابَ الشيطان الخبيث:

- لا شيء، لا شيء. اعلم يا أمير التعساء أنك الآن في مسكن الانتقام واليأس. سيشتعل قلبك أيضًا، مثل قلوب عبيد إبليس الآخرين. تبقّى لك عدة أيام قبل أن تحين تلك الفترة المميتة. أنفقها كما تشاء، اتكئ على أكوام الذهب هذه، اطلب خدمة الجن، تجوّل بحريةٍ في هذه الأراضي السفلية الشاسعة، لا حاجز يمنعك. أما بالنسبة لي لقد أنهيت مهمتي، أتركك الآن لنفسك.

وعندَ انتهائه من هذه الكلمات اختفى.

ظلّ الخليفة ونور الصباح في أعمق حالةٍ من الحزن والأسى؛ لم يستطيعا البكاء، وبالكاد استطاعا أن يستمرّا في التنفس.

في النهاية، وبيدٍ مكسورةٍ من اليأس، أمسكا بأيدي بعضهما، وخرجا من هذه القاعة المميتة، دون أن يهتمّا بالطريق الذي يتجهان إليه. فتحت كلّ بوابة أمامهما عند اقترابهما، سجد الجن أمامهما، كشفت كل خزانة ثرواتها ليمتعا أعينهما؛ ولكنهما لم يعودا يشعران بحماس أو فضول أو غرور أو طمع؛ بل بلا اكتراث استمعا إلى جوقة الجن ورأيا الولائمَ الفخمة المعدّة لإسعادهما. تجولا دون هدفٍ من غرفة إلى غرفة، ومن قاعة إلى قاعة، ومن ممرٍّ إلى ممر. كلها بلا حدود أو قيود، كلها تزينها نفس الكآبة المرعبة، كلها مزيّنة بجلالة رهيبة، كلها ممتلئة بأشخاص يبحثون عن الراحة والمواساة، لكنهم يبحثون عنهما دون جدوى؛ فكلُّ واحد يحمل في داخله قلبًا يعذبُه اللهب. كانوا يمرون ويتجاهلهم هؤلاء الذين يعذّبون. الذين يبدو أنهم يلومونهما على اشتراكهما في نفس ذنوبهم، والشرك الذي وقعوا فيه جميعًا، انسحبا من المكان لينتظرا بتوترٍ شديد اللحظةَ التي سيتحولان فيها ليصبحا مثل هؤلاء الهائمين الذين يدورون حولهما.

صاحتْ نور الصباح:

- هل سيأتي الوقتُ الذي سأنتزع يدي من يدك؟

قال الواثق:

- وهل ستتوقف عيناي عن نهلِ لذّة الاستمتاع بالنظر إلى عينيك؟ هل ستتحول لحظات النشوة المتبادلة بيننا إلى ذكرى مروّعة؟ لم تكن أنتِ مَن جلبني إلى هنا؛ فالمبادئ التي أفسدتْ شبابي بسبب أمي قراطيس هي السبب الوحيد لهلاكي.

بعدَ أن أفرغ هذه التعابير المؤلمة، دعا عفريتًا كان يتحرك بأحد المشاعل، وأمره بجلبِ الأميرة قراطيس من قصر سامراء.

بعدَ إصدار هذه الأوامر، استمرّ الخليفة ونور الصباح في المشي بين الحشد الصامت، حتى سمعا أصواتًا في نهاية الرواق. افترضا أنها تنبعث من بعض الكائنات

البائسة اللذين هُمَا مثلها، ينتظران قدرهما النهائي. فاتبعًا الصوت ووجداه ينبع من غرفة مربعة صغيرة، حيث اكتشفًا خمسة شبان ذوي مظهر جميل وامرأة جميلة، يجلسون على الأرائك ويُجرون حوارًا حزينًا في ضوء مصباحٍ وحيد. كان لكلٍّ منهم هالة قاتمة ومخيفة، وكان اثنان منهم يتعانقان بحنان كبير. عندَ رؤية الخليفة وابنةَ فخر الدين يدخلان، قاموا وسلّموا وأفسحوا لهما مكانًا. ثمَّ تحدث أحدهم إلى الواثق قائلًا:

- أيها الغرباء الذين هُم بلا شك في نفس الحالة التعسة التي نحن فيها، إذ لم تضعوا بعدُ أيديكم على قلوبكم، إذا جئتم إلى هنا لتمضوا الفترةَ المخصصة قبل تنفيذ عقوبتنا المشتركة، فضلًا أخبرونا بالأخطاء التي أوصلتكم إلى هذا المكان المميت، وبدورنا سنخبركم بأخطائنا، التي تستحق حقًّا أن تُسمع، سنعيد تتبع جرائمنا منذ بدايتها، رغم أنه لا يُسمح لنا بالتوبة، لكن هذه هي الوظيفة الوحيدة المناسبة للبائسين أمثالنا.

وافقَ الخليفة ونوزُ الصباح على الاقتراح، وبدأ الخليفة في سرد صادقٍ لكل التفاصيل التي مرَّت به، وكلما حكى كان ينوحُ وتتساقط دموعه على ما فاتَ وعلى عثراته التي ارتكبها. عندما انتهى من السرد المؤلم، بدأ الشاب في حكي حكايته الخاصة، واستمرَّ كلُّ شخص على الترتيب، وعندما وصلَ الأمير الرابع إلى منتصف مغامراته، توقف فجأة بسبب ضجيجٍ ارتعاش القبو وفتح بابه.

في الحال، نزلت سحابة تلاشت تدريجيًا، وكشفت عن قراطيس على ظهر عفريت يشتكي بشدَّة من العبء الذي حمله، بينما انزلقت هي على الأرض فجأة، وتقدَّمت نحو ابنها وقالت:

- ما الذي تفعله هنا في هذه الحجرة الصغيرة؟ وبما أن الجنَّ قد أصبحوا خاضعين لأوامرك، كنت أتوقع أن أجدَك على عرش ملوك ما قبل آدم.

أجابَها الخليفة في حنق:

- أيتها المرأة الملعونة. لعنتُك أصابتني منذ يوم ولدتُني. اذهبي، اتبعي هذا

العفريت، دعيه يقودك إلى قاعة النبي سليمان، حيث ستعرفينَ لماذا وجدث هذه القصور، وكم يجب أن أكره المعرفةَ الخبيثة التي علمتِني إياها.

ردّت قراطيس:

- يبدو أن السلطةَ التي وصلت إليه أدّت إلى انقلابٍ في عقلك، ولكنني لا أطلب أكثرَ من الإذن لأظهر احترامي للنبي. عليك أن تعلم أنني عندما أخبرني العفريت أنه لن يعود أحدُنا إلى سامراء ثانية، طلبت إذنَه لترتيب شئوني، ووافق بلطف؛ لذا استغلالًا للحظات القليلة المسموحة لي أشعلت النار في البرج وأحرقت فيه الصم والبكم والثعابين التي كانت تخدمني بإخلاص؛ ولو لم يحميني موركاناباد من الانقلاب الأخير لأخيك لكنتُ سأكون أكثر لطفًا معه. أما باباباالوك الذي ارتكب حماقةً بالعودة إلى سامراء، وكل الخصيان الصالحين الذين قدموا العونَ لنسائك، فبالتأكيد كنت سأعذبهم لو أمكنني الوقت؛ ولكنني كنت على عجلةٍ من أمري لذا اكتفيت بشنقِه بعد أن أمسكتُ به في فخ. بينما دفنت نساءك أحياءً بمساعدة إمائي اللاتي أمضينَ لحظاتهن الأخيرة برضًا تام. أما بالنسبة لديلارا، التي كانت دائمًا مقربةً لديّ فقد أظهرت عظمة عقلها من خلال تمسُّكها بالخدمة بجوار أحد المجوس عابدي النار، وأعتقد أنها ستكون قريبًا معنا.

شعرَ الواثق بالاستياء الشديد حتى ليعبر عن غضبه من مثل هذا الحديث. أمر العفريتَ بإبعاد قراطيس من أمام عينه، وظلَّ منغمسًا في التفكير، حيث لم يجرؤ أحد من مرافقيه على إزعاجه.

دخلث قراطيس بسرورٍ قبةَ سليمان، ودون أن تهتمَّ مطلقًا بأنين النبي، قامت بإزالة غطاء الجرار بجرأة واستولت بقوّة على التمائم، ثمَّ بصوت أعلى مما سُمع من قبل في هذا المكان، أجبرت الجنَّ على الكشف لها عن أسرار أكثر الكنوز سرية، وأعمق المخازن التي لم يرَها العفاريت أنفسهم، ولا يعرفها إلا إبليس وأقربُ الملوك إليه. دخلت من ممرّات غريبة واخترقت باطنَ الأرض نفسها، حيث يقبع السنسار(39)، ورياح الموت الباردة. لم يرهب شيء عنفوانَ روحها الجريئة، لكنها لاحظت في جميع الموجودين الذين كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم غرابةً لم

تعجب ذائقتها على الإطلاق. عندما خرجت من إحدى الهاويات ظهر إبليس أمامها، لكن على الرغم من أنه أظهر سطوعًا كاملًا لجلاله الجهنمي، حافظت على ملامحها دون تغيير، وحتى قدمت تحياتها بثبات كبير.

قال إبليس عندما رآها:

- أيتها الأميرة، التي استحقَّت معرفتها وجرائمها مكانةً بارزة في إمبراطوريتي، من الجيد أن تستغلي وقت الفراغ المتبقي لديك لأنَّ النيران والعذابات التي هي على وشك الاستيلاء على قلبك، ستشغلك حينها عن تمضية أي وقت.

قال ذلك واختفى خلفَ ستائر مسكنه.

تراجعت قراطيس للحظة بدهشة، ولكنها عزمت على اتباع نصيحة إبليس، جمعت جميعَ جوقات الجن وجميعَ العفاريت لتكريمها. مشت على طول ممرٍّ مبخَّر وسط سحابة من العطور، وبين تصفيقات جميع الأرواح الخبيثة، التي معظمهم عرفنَها من قبل.

Telegram:@mbooks90

حاولت حتى خلعَ أحد أفراد عائلة سليمان بهدف الاستيلاء على عرشه، لكن عندها دوَّى صوت يصدر من هاوية سحيقة يقول:

- لن تقدري على ذلك، انتهى كلُّ شيء. حان دورُك.

وفجأة، تجعَّدت الجبهة المتغطرسة للأميرة الجريئة وصرخت بصوتٍ هائل ووضعت يدَها اليمنى على قلبها، الذي أصبح مستودعًا للنار الأبدية.

أثناءَ هذيانها، تذكرت جميعَ المشاريع الطموحة وتعطشَها للمعرفة التي كان يجب أن تظلَّ مخفية عن البشر، وقبولها لعروض الأرواح الخبيثة، وبعد أن لعنتِ الساعة التي جاءت فيها للحياة والرحم الذي حملها، انزلقت في دوّامة جعلتها غيرَ مرئية واستمرت في الدوران دون توقف.

وفي نفس اللحظة تقريبًا أعلن الصوتُ نفسه للخليفة ونور الصباح والأمراء الخمسة، المرسومَ الفظيع الذي لا رجعةَ فيه. اشتعلت قلوبهم على الفور بالنار،

وفقدوا في الحال أثمنَ عطايا السماء. ألا وهو الأمل.

انكمش هؤلاء البشر البائسون بتعابيرَ جنونية وجامحة، رأى الواثق في عيون نور الصباح الغضبَ والانتقام، ولم تتمكّن هي من رؤية أيّ شيء سوى النفورِ واليأس في عينيه. أما الأميران اللذان كانا صديقين وحافظًا على صداقتهما حتى ذلك الوقت، ضغطا أسنانَهما بكراهية متبادلة لا يمكن تغييرها. قام الأميرُ كليلة وأخته بإظهار إيماءات اللعنة لبعضهما البعض، بينما قام الأميران الآخران بالتعبير عن رغبتهما في قتل بعضهما البعض من خلال تشنجات رهيبة وصرخات لا يمكن كبحُها. انخرط كلٌّ منهم بشكل منفردٍ في الجموع الملعونة هناك ليتجوَّل فيها في سنوات من العذاب الدائم.

هكذا كان - وينبغي أن يكون - عقابُ مَن يسير في طريق الأهواء الجامحة والأفعال الدَّنسة. هذه هي - ويجب أن تكون - طريقةُ تأديب مَن يسير في طريق الطموح الأعمى الذي يتجاوز الحدودَ التي رسمها الخالق للمعرفة البشرية.

وعبرَ هذا الطريق الوعر المتعرج، اكتُسبت الكبرياء التي تفتن، التي لا تدرك أنَّ الشرط الوحيد للإنسان لكي يعيش في أمان وسعادةٍ هو أن يكون جاهلًا ومتواضعًا.

وهكذا أصبح الخليفةُ الواثق - الذي دنَّس نفسَه بآلاف الجرائم من أجل الأبهة الفارغة والسلطة المحرمة - فريسةً لحزنٍ لا نهاية له، وندمٍ لا يخفف، بينما قضى غولشنروز المتواضعُ عمرَه بأكمله في هدوءٍ وراحة وسكينة، وفي سعادةٍ طفولية خالصة.

تَمّت

---

(1)من كتاب جلال السيوطي «تاريخ الخلفاء» الواثق بالله هارون، أبو جعفر، وقيل: أبو القاسم ابن المعتصم بن الرشيد. أمه أمّ ولد رومية، اسمها قراطيس.

ولدَ لعشرٍ بقين من شعبان سنة ستٍّ وتسعين ومائة، وولي الخلافة بعهدٍ من أبيه، بويع له في تاسع عشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين.

(2)سامراء عاصمة الدولة العباسية بعد بغداد، وكان اسمُها القديم (سُرَّ مَن رأى)، وقد بناها المعتصم العباسي سنة (221هـ/ 835 م) لتكون عاصمةً دولته.

(3)ماني أحدُ الانبياء الذين ظَهروا في بلاد ما بين النهرين، ولدَ في عام 216م في بابل التي كانت تخضَع للإمبراطورية الفارسية، وهو مؤسسُ الديانة المانوية التُوحيدية التي انتشرت في كثيرٍ من البلدان، واستمرّت لمدةٍ تقارب الألفَ عام، تعرضَ خلالها أتباعُها إلى الاضطهاد على يد المؤسّسة الدينية الفارسية (الزرادشتية) حتى تمَّ سجنُه وإعدامه في عام 277م.

(4)يبدو أنَّ المؤلف أسقط بعض صفات الإله على محمد «ص» بسكنة لأعالي السماء وإرساله الغضب والرضا ومراقبة البشر وأفعالهم وما إلى ذلك من الصفات الإلهية، والتي تتكرر كثيرًا في الرواية.

(5)برج بابل أو برج النمرود، بناء يعتقد أنه بني في مدينة بابل في بلاد ما بين النهرين في زمن النمرود بن كنعان، وحسب سفر التكوين فبعد نهاية الطوفان شرع نسل نوح في بناء برج بابل في سَهل شنعار بغيةَ أن يجمعَهم مكانٌ واحد من الأرض، فلا يتبدّدون على وجه البسيطة الواسعة.

(6)من كتاب «مآسي الخلافة كنظام للحكم» للكاتب عبد المنعم الخن: «وأمُّ الواثق أمُّ ولد (أم ولد: هو اصطلاحٌ يُطلق على الجارية التي أنجبت، سواء ولد واحد أو أكثر، وسواء ذكر أم أنثي) وهي روميَّة تسمى قراطيس».

(7)لا توجَد جزيرة تُدعى كيرميث في العالم الحقيقي. إنها جزيرة خيالية تظهرُ في كتابات ويليام بيكفورد فقط. توصَف جزيرة كيرميث بأنها جزيرةٌ جميلة وخصبَة، بها فواكه وخضرواتٌ وفيرة. ويقال أيضًا إنَّها موطنٌ لربيع سخري يمكن أن يمنحَ الشباب الأبدي.

(8)في كوسمولوجيا بلاد ما بين النهرين، تحدُّد أربعة أنهار تتدفَّق خارج حديقة الخلق، والتي هي مركز العالم، أركان العالم الأربعة.

(9)ترجعُ هذه الشهرة إلى أواخر العصور الوسطى، عندما كان تجارُ جنوة يتردّدون على الساحل القوقازي، وكان كوزيمو دي مديتشي، مؤسسُ أسرة مديتشي له ابن غيرُ شرعيٍ من جارية شركسية. في عهد الدولة العثمانية والأسرة الصفوية والقاجاري الفارسية، كانت النساءُ القوقازيات يعشنَ كعبيد في حرملك السلطان، وبدأت شهرةُ نساء الشركس كنساء شديداتِ الجمال والكياسة، ليصبحنَ فيما بعد مجازًا في الاستشراق الغربي.

(10)أحدُ ملوك مملكة إسرائيل الموحّدة حسب الوارد في سِفر الملوك الأول وسِفر أخبار الأيام الأول وحسب التلمود، وهو أحدُ الأنبياء الثمانية والأربعين، وابن داود، وثالث ملوك مملكة إسرائيل الموحدة، اشتهرَ وفقَ العقيدة اليهودية بحكمته وثرائه وملكِه الكبير، وعدد من الذنوب التي بموجبها عاقبَ الإله بني إسرائيل بتقسيم مملكتهم.

(11)مدينة قديمة تقع في جنوب إيران. كانت مدينةً مزدهرة خلالَ فترة الدولة الأخمينية. ثمّ أصبحت مؤقتًا عاصمةَ الدولة الساسانية، أنشأ الإمبراطور الساساني يزدجر الثالثُ المدينة، وحاول التخطيطَ لمقاومة منظمة ضدّ العرب، لكن إصطخر فشلت في تقديم مقاومة قوية. ودارتْ معركة إصطخر عام 650 م بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية الساسانية، وكانت آخرَ معركة بين الدولتين، وانتهت بفتح إصطخر من قبَل المسلمين. وبعد المعركة، أصبحت بلادُ فارس تحتَ الحكم الإسلامي.

(12)تقول الأسطورة القديمة: «جان بن جان أو جيان بن جيان هو آخرُ اثنين وسبعين من جنّ سليمان، هو حاكمُ جينستان وله الأمرُ على جميع جنسه، هو باني أهراماتِ مصر العظيمة. كان درعُه عبارة عن أداةٍ سحرية قوية وصلت إلى يد الملك سليمان، مما سمح له بتقييد الشياطين».

(13)قصة مشهورة في التراث المسيحي عن حمار يتكلم ليخبرَ صاحبه عدمَ الاقتراب من معصية الخالق حين رأى ملاكًا يقف أمامه ليمنع بلعام من لعنِ شعب إسرائيل، وعندما يضرب بلعام حمارَه يتحدث إليه حتى يريه الإله الملاك متجسدًا.

(14)ركن آباد منطقة تقع في الجانب الشمالي الشرقي من شيراز، إيران. وقد اشتهرت في الأدب الإنجليزي من خلال ترجمات الشاعر الفارسي شمس الدين محمد حافظ الشيرازي في القرن الرابع عشر.

(15)من مقاييس المسافة قديمًا. تجمع أغلبُ المراجع على أنّ الفرسخ يعادل ما بين أربعة وستة كيلومترات في النظام الدولي الحالي.

(16)مدينة هندية ساحلية قديمة، كانت بمثابةِ مستوطنةٍ للتجار الأوروبيين منذ القرن السادس عشر، وكانت ميناء تجاريًا رئيسيًا للبرتغاليين والبريطانيين والهولنديين والفرنسيين في القرن السابع عشر.

(17)ثالثُ الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحبُ المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسسُ علم أصول الفقه.

(18)هذا الاسمُ لقرية هندية قديمة تقع في ولاية راجستان.

(19)أحدُ الطيور الخرافية الذي يكثر ذكرُه في الأساطير الآرية الدينية والتاريخية. اشتهر أمرُ هذا الطائر على يد الشاعر الخراساني الشهير فريد الدين العطار في ملحمته الشعرية «منطق الطير» التي اقتبسَ عنوانها من القرآن الكريم. فقد جعل «السيمرغ» إله للطير، وتصورَ أن ألوفًا مؤلفة من مختلف الطيور تسعى إليه في رحلةٍ طويلة متعبة مَحفوفة بكثير من المخاطر والشهوات، فلا يصل إلى حضرة أعتابه العلية إلا ثلاثون منهم.

(20)قطراتٌ لزجة تخرج من شجرة تسمَّى البلسان، ولها أهمية طبية كبيرة.

(21)اسمٌ يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين عند الهندوس.

(22)هو الإلهُ الأعلى أو الحقيقة العليا في الهندوسية الفيشنوية. يوصَف بأنه الجوهر الحالّ في كل الكائنات وربُّ الماضي والحاضر والمستقبل، وخالق ومدمّر كلِّ الموجودات، والإله الذي يدعم ويحفظ ويحكم الكونَ ويخلق ويطور كلَّ ما فيه.

(23)إلهٌ معبود في الثقافة الهندية تقدَّم له بعض أنواع الزهور.

(24)بلدتان من بلاد «جينستان»، أو أرض الجنيات.

(25)هي أرواح مجنّحة مشهورة بجمالها. وصِفوا على أنهم كائناتٌ مؤذية مُنعَت من دخول الجنة حتى يكملوا كفّارة ذنوبهم. وفي الثقافة الإسلامية، تحوَّلوا إلى أرواح خيرة على النقيض من مُفسدي الجن والشياطين.

(26)في الثقافة الأوروبية، يُنظر إلى طائر «مالك الحزين» على أنه رمزٌ للموت والتحوّل. يُعتقد أن مالك الحزين يجذب الأرواحَ الميتة إلى العالم الآخر، وكان يُستخدم في الطقوس التي تتعلق بالموت والتعاويذ السحرية.

(27)ياقوتة أسطورية وردَ ذكرُها في العديد من الأساطير والخرافات العربية. وهي مصدرُ قوة وحكمة لا حدودَ لها. كانت مملوكة لملكٍ أسطوري يتمتع بالقوة والشجاعة، وكانت مصدرَ قوته وحكمته، وكانت تساعده في حماية مملكته.

(28)ولاية راخين والمعروفة باسمها القديم آراكان، وهي إحدى ولايات دولة ميانمار.

(29)الجسر المميت هو عنصرٌ شائع في ثقافة الحياة الآخرة في العديدِ من الثقافات حول العالم. غالبًا ما يتم تصويرُه على أنه جسرٌ ضيق يمتدُّ فوق نهر أو خندق مظلم. على الجانب الآخر من الجسر يوجَد جنة أو جحيم. يُعتقد أنَّ أرواح الموتى يجب أن تعبرَ الجسرَ للوصول إلى الحياة الآخرة. ومقابله في الإسلام الصراط.

(30)جبلٌ أسطوري وردَ ذكره في ميثولوجيا الشرق الأوسط، يقال بأنّه يقع على حافة الدنيا محيطًا بالأرض كإحاطةِ بياض العين بسوادها، ويتكون من الزبرجد الأخضر. ذكر في كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني، على أنه جبلٌ محيط بالأرض من الزُبرجد الأخضر، ولون السماء بسببه، موكل عليه مَلَك، لا يعلم أحدٌ ما يقع وراءه، وكلّ جبل على الأرض أو في الدنيا عرقٌ من عروق جبل قاف متّصل به.

(31)أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي الهاشمي القرشي (247 - 205 هـ)، تولى الحكمَ خلفًا لأخيه الواثق بالله.

(32)مكانٌ أسطوري يُقال إنه عالمٌ من الضوء النقي والسعادة. غالبًا ما يُوصَف بأنه يقع في السماء، أو في بُعد سحري لا يمكن الوصول إليه.

(33)ملك عربي. أحد ملوك قوم عادٍ من العرب البائدة، ارتبط اسمه الوثيق بتشييد مدينة إرم ذات العماد الوارد ذكرُها في القرآن الكريم. وهو من أكثر الشخصيات التي نُسِجت حولها العديدُ من القصص التي جعلته أقربَ لأن يكون أسطورة، فقيل إنه عاش 500 عام، وقيل 900 عام، وقد نسبَ المؤرخون له العديدَ من الفتوحات التي جعلته شبيهًا بالإسكندر وذي القرنين.

(34)الشيردال حيوانٌ أسطوري له جسمُ أسد، ورأس وجناحا نسر، استخدمَ الأوروبيون صورَه وقصصه كثيرًا في تراثهم. في العصور الكلاسيكية القديمة، كان الشيردال معروفًا بحراسة الكنوز والممتلكات التي لا تقدر بثمن.

(35)في الإنجيل يقول بولس إنَّ إبليس يتغير في هيئة ملاك نور، فإنَّ الشرير يفضل أن يقترب تحت ستار شيء صالح وليس شيئًا شريرًا.

(36)وحش أسطوري يُقال إنه يعيش في جبال الهيمالايا. يُوصف بأنه وحش ضخم ذو جسم أسود ورأس أبيض. لديه عيونٌ حمراء ملتهبة وأظافر طويلة حادة.

(37)هي قلعةٌ خيالية ضخمة وهي موطنٌ لملك شرير يُدعى أهرمان. محاطة بحقول من الأشجار السامّة والأحجار المتحركة ومليئة بالفخاخ والممرات السرية.

(38)مكان أسطوريّ يُقال إنه عالمٌ من الضوء النقي والسعادة.

(39)مخلوقٌ أسطوري في الأساطير الفارسية يقال إنّه يجلب الموت والدمار.

Telegram:@mbooks90